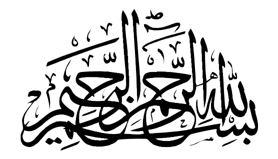
رؤى

في الإصلاح الثقافي



رؤى
في الإصلاح الثقافي

فوزي آل سيف



أطياف للنشر والتوزيع
هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
جوال: ٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail: atya-pd@hotmail.com



الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م



أطيـــاف للنشـــر والتـــوزيـــع
هـــاتف / فـاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
جـــــوال: ٠٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦+
الـقـطـيـف - شـــارع الـقـدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail: atya-pd@hotmail.com



المحتويات

قضايا ثقافية في منهج أهل البيت

مُقـَـدِّمَــة

تعـــيش أمتنا العربية والإسلامية كما هو مشاهد وضعاً متخلفاً، في أكثر من صعيد.. فهي تقبع في ذيل الأمم المتحضرة وتحتل موقعها في خانـــة الأمم المتخلفة والتي تسمى مجاملة بالنامية. وفي داخلها لا يحتاج الباحث إلى أكثر من الالتفات إلى ما حوله، ليرى آثار التخلف ومظاهره في مختلف الصعد ظاهرة.

ففي المجال السياسي لا تزال الأمة تعيش ضمن أنظمة سياسية لا تنتمـــي إلى هـــذا العـــصر وبعض شعوبها تحيا غائبة تماماً عن واقعها الـــسياسي (تكتـــرش من أعلافها وتلهو عما يراد بها)، كما لم هذه الـــشعوب تحقق تقدماً في صراعها الأساس، بل تتراجع يوماً بعد يوم وأمامك القضية الفلسطينية شاهد فما كان يرفضه المسلمون بقوة في السابق أصبحوا يتوسلون لنيل بعضه اليوم فلا يجدونه!

وفي المجـــال الاقتـــصادي تلاحقـــك صور الفقر والبطالة وضعف الإنتاج، ويتمثل بين عينيك عناوين التبعية بالرغم من مقومات الثراء والغنى الموجودة فيها، في البر والبحر والموقع، وغير ذلك مما يعلمه الجميع.

وإذا كانـــت المجـــال الاجتماعي في السابق يشفع لهذه الأمة بعض الشيء حيث لم تصل مشاكل الحداثة وآثار العولمة، فبقي أثر التوجيهات الأخلاقـــية والأنماط الاجتماعية التقليدية صائناً لقسم من القيم، وحافظاً لأبناء المجتمع من الانهيار، فإن هذا بدوره قد تراجع على أثر الانفتاح على الثقافات والعادات الذي جاء به عولمة التواصل في هذا الزمان.

ولهـــذا ينبغـــي التساؤل عما هي الحاجة الأكثر إلحاحاً بالنسبة

لأمتنا لكي تتجاوز وضعها السيئ الراهن؟

ربمـــا يسرع البعض إلى الإجابة بأن التخلف لما كان شاملاً في كل النواحي، فنحن نحتاج إلى كل شيء؟ إن ذلك يشبه قرية منكوبة فتحـــتاج إلى الـــشارع والمستشفى وقنينة الماء والمخبز وهكذا باقي الأشياء، لا تستطيع أن تستثني شيئاً.

وهذا الجواب بالرغم من صحته إلا أنه لا يمنع من السؤال بأنه مـــا هـــو الأكثر إلحاحاً في تلك القرية؟ إن حاجة الأمة متعددة فهي تحتاج إلى التخصص العلمي، وتحتاج إلى السلاح المتطور، وتحتاج إلى المصنع المنتج وتحتاج إلى غير ذلك..

لكننا نعتقد أنها تحتاج قبل كل ذلك وبعده وأثناءه إلى البصيرة والمعـــرفة والـــثقافة.. وهذا يعني أنها تحتاج إلى نظرية ترسم الطريق الـــصحيح في حـــياتها، وتحتاج خريطة تعلمها من أين تبدأ.. وتحتاج بالتالي إلى إصلاح ثقافي بحيث لو لم تحصل على هذا الجانب و لم تسعَ فيه، لم ينفعها ما حصلت عليه!

ضـــمن هذا الإطار تأتي هذه الصفحات لكي تعالج هذه المسألة في القسم الأول من الكتاب، بينما يتناول القسم الثاني قواعد في فهم التـــراث من النصوص، والذي لا يزال يؤثر تأثيراً مباشراً وكبيراً على حـــركة الأمة، وتتأثر بطريقة فهمه اختياراتها في الحياة، مساهمة من المؤلف في تلمس طريق التغيير والإصلاح الثقافي في الأمة وهي – في الأصل – محاضرات سبق أن ألقيت في موسم رمضاني سابق، أرجو أن تكـــون إشـــارة إلى الطريق الصحيح، فإن كانت فلله الحمد وإلا فأرجو أن لا يفوتني أجر النية الصالحة.

فوزي آل سيف
تاروت – القطيف – شرق السعودية
1428/4/29هـ

الإصلاح الثقافي خطوة البداية

نعم الله في الكون على قسمين:

القسم الأول: متاح لكل الناس من دون حاجة لمواصفات خاصة أو جهد استثنائي فنعمة الهواء مثلاً لا تحتاج إلى مواصفات خاصة أو جهد استثنائي يصرفه بل يكفي أن تكون أجهزة التنفس عند المرء صالحة حتى يستطيع أن يستفيد من هذا الهواء الذي جُعل لجميع الناس وهكذا الحال بالنسبة إلى نور الشمس. وأكثر النعم الإلهية المادية هي من هذا القسم لا يختص بها بشر دون بشر ولا فئة دون أخرى.

- وهناك قسم آخر من النعم الإلهية - وهي غالباً الأمور المعنوية والمعرفية والعلمية - هذه لا تتوفر لكل الناس وإنما تحتاج إلى بذل جهد وأن يقوم بقصدها ويخطط لها حتى يحصل عليها. مثل الحكمة.

الحكمة[1] - كما ورد عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حيث قيل له: ما هي الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء وإن من يؤتاها فقد أوتي خيراً كثيراً، فقال: - (هي المعرفة)[2] أي الثقافة، والبصيرة، والفهم.

---

(1) ذكر ابن منظور في لسان العرب أن: الحِكْمَةُ عبارة عن معرفة أَفضل الأَشياء بأَفضل العلوم. ويقال لِمَنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها أنه حكيم.

(2) ميزان الحكمة 672/1.

هذه لا تتوفر لكل الناس كما يتوفر الهواء والماء ونور الشمس. وإنما تحتاج إلى مقدار من الجهد ومقدار من القصد ولذلك فإن الذي يؤتاها ليس كل إنسان وإنما من يشاء الله ويشاء هو.

﴿... وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ ليس كل شـــيء يُعطاه الإنسان هو خير بالضرورة، فأحياناً يعطى شيئاً فتكون عاقبـــته مُرَّة، لكن بعض الأشياء يؤكد القرآن الكريم بأنها خير ومنها الحكمة.

والحكمة خير، ولكن ليست أي خير فإن المال قد عُبر عنه بأنه خير، قال تعالى: ﴿... **إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ**...﴾ ولكن الخير الكثير لـــيس المال وإنما الحكمة، والكثير كثرة إلهية يختلف عن الكثير عند الـــناس فالكثـــرة نسبية لأن الكثير عندي لا يكون كثيراً عندك، بل يختلف الكثير بحسب السعة بين الناس فإذا عبر الله سبحانه وتعالى عن شيء بأنه كثير مع أن الله لو جُمع ما في الدنيا وما في الآخرة لما كان يعدل جناح بعوضة فإذا كان الله يقول إن: **﴿... وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَـــدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾** يتبين أن هذه الحكمة هي كنـــز عظيم بالنسبة للإنسان قال تعالى: ﴿... **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾.

إذن.. الحكمة: هي المعرفة ونحن حديثنا يتناول جانب الإصلاح الثقافي في الأمة كمقدمة لنهوضها.

فـــإذا أردنا في أمتنا الإسلامية أن ننهض فأول خطوة ينبغي أن تسلك هي الإصلاح والتغيير الثقافي.

ولهـــذا ينبغـــي أن ننظر إلى ما هو موجود مما يصنف ضمن الـــثقافة الإسلامية، فنقوم بنخله وتصفيته، وحذف الأوهام منها، والخـــرافات، كمـــا ينبغي إصلاح الأفكار الخاطئة التي تدعو إلى التواكل والكسل أيضاً.

وهـــذا ضـــروري في النهضة لأن حركة الناس وسعيهم رهينة ثقافـــتهم وأفكـــارهم، فلـــو تساءلنا ما هو الفرق بين المجتمع الغربي الأوروبي المتقدم وبين المجتمع الشرقي المسلم المتأخر بحيث صار أولئك متقدمين ونحن متخلفين؟

هـــل السبب في العنصر حيث بعضهم من الآريين وهذا الشرق المسلم من العنصر السامي؟ أو أن السبب راجع إلى اللون؟ أو المناخ والجغرافيا؟

كـــلا إنمـــا المختلف هو سعيهم وعملهم وحركتهم بناء على اختلاف ثقافتهم عن ثقافتنا وفكرهم عن فكرنا. وعندما نقول نختلف ثقافـــياً لا يعـــني ذلـــك أن كل ما عندهم خاطئ أو كل ما عندنا صحيح؟ ولا العكس.

ومـــن الحكمـــة أن ننظر إلى ما لدى الآخرين من علم ومعرفة وحكمـــة فنـــستفيد منها. إنكم ترون الآن فكرة باطلة في مجتمعاتنا الإسلامية وهي أنه ما دام الشيء الكذائي قد قاله الغربيون فلا نريده. الإصـــلاح الـــسياسي لا نريده لأنه دعوة قادمة من الخارج!! هذا خـــلاف للمـــبدأ الديني القائل أن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذها سواء كانت من الخارج أو من الداخل.

إذن أول خطـــوة هـــي خطوة معرفية وثقافية: لا بد من إصلاح الثقافات والمعارف حتى يتغير السلوك ويتغير السعي والحركة. فلو أخذنا بعض الأمثلة الفردية من تاريخ المسلمين، لرأينا أن الذي صنع التغيير في ظاهر هؤلاء هو التحول الذي حدث في باطنهم وثقافتهم.

عمـــار بن ياسر هذا الصحابي الجليل كان في السابق عبداً من العبـــيد يُـــباع ويُشترى بمقدار قليل من الدراهم سعيه غير منتج له، حاضـــره غير معروف وكذا مستقبله، لكنه عندما ينتقل هذه النقلة

الفكـــرية والإيمانية يصبح كما ذكره رسول الله ﷺ: جلدة ما بين عينيه (عيني الرسول)[1] وأنفه).

ما الذي تغير فيه هل زاد يداً أو نقص رجلاً؟ هل صب محلول كيميائـــي على بدنه؟ كلا! إنما تغير فكره وحكمته. كان يحيا بثقافة غـــير هادفة فأصبح يحمل ثقافة هادفة، كان كل دائرته في أن يرعى غنم سيده وأن يرجع لكي يشبع بطنه فأصبح إنساناً يحمل مسؤولية تغيير نفسه وتغيير واقعه، وينتمي لعقيدة ويضحي من أجلها، ويفكر في هداية البشر. هذا الأصل الثقافي الذي تغير وتبدل فيه رفع منـــزلته وغيّر حياته وبدّل سعيه وحركته.

الـــشيء الوحـــيد الـــذي تغير أنه جاء وقرأ القرآن فرأى فيه: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾**[2].

صـــار يحمـــل هدفاً في حياته وتغير سعيه بعدما صار يعتقد أنه **﴿وَقِفُـــوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾**[3] أصبح يختلف عن نظيره الذي يرى أنـــه **﴿... مَـــا هِـــيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْـــرُ...﴾**[4].. الفارق هو الأصل الثقافي والمعرفي الذي يعتمد عليه وهذا الأصل الثقافي سينشأ منه خير كثير.

المعرفة أفضل العبادة:

لـــذلك كانت المعرفة والثقافة أولى وأفضل حتى من العبادة كيف ذلك؟

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام 345/2.

(2) المؤمنون: 115.

(3) الصافات: 24.

(4) الجاثية: 24.

المسلمون يعتقدون أن العقائد هي الأصول وهي من أفعال القلوب والجـوانح (كمـا يقولـون) والعبادات هي الفروع وأفعال الجوارح. والأصول مقدمة على الفروع. في الأصول لا يُطلب حركة يد أو رجل بل حركة عقل: أن يعتقد الإنسان بالله بأن يعرف ربه ومبدأه ومنتهاه.. أن يعرف ما يُراد منه وبالتالي ما يقربه من الله وما يبعده عنه، وأن يعرف عما سيُسأل.. هذه العقائد كلها معارف[1] وهي تتقدم على العبادات. في العـبادة تحتاج إلى حركة في الصلاة من ركوع وسجود وقيام، وإلى معاناة بدن في الصيام، وحركة جوارح في الحج، لكن المعارف والثقافة لا تحتاج هذه الأمور إنما تحتاج تحريك عقل وفكر.

في الحـديث عـن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أن رجلاً سأل الإمام: يا أبا عبد الله أخبرني عن أحب الأعمال وأفضلها عند الله؟

وهـنا قـد يتبادر إلى الذهن إن أحب الأعمال الصلاة لأنها لو قُـبلت قُبل ما سواها، وربما يقول أحدهم إن أحب الأعمال الجهاد باعتباره باباً من أبواب الجنة. بينما كان جواب الإمام (ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أحب من الصلاة)[2] يعني أولاً المعرفة أحب إلى الله ثم بعد ذلك تأتي الصلاة.

---

(1) في الكافي – الشيخ الكليني، ج 1، ص 50: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن القاسم بـن محمـد عن المنقري عن سفيان بن عيينة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: وجـدت علم الناس كله في أربع: أولها أن تعرف ربك والثاني أن تعرف ما صنع بك والثالث أن تعرف ما أراد منك والرابع أن تعرف ما يخرجك من دينك.

(2) الكافي – الشيخ الكليني، ج 3، ص 264.

– حدثني محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عـن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم وأحب ذلك إلى الله عز وجل ما هو؟ فقال: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أن العبد الصالح عيسى ابن مريم عليه السلام قال: ﴿... **وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**﴾.

وفي حـــديث: عـــن رسول الله ﷺ: "أفضلكم إيماناً أفضلكم معرفة".

وعن بعض المعصومين (عليهم السلام): بعضكم أكثر صلاة من بعـــض، وبعـــضكم أكثر حجاً من بعض، وبعضكم أكثر صدقة من بعض، وبعضكم أكثر صياماً من بعض، وأفضلكم أفضل معرفة[1].

القرآن يفكك الأصول الثقافية الخاطئة:

لأهمـــية الموضوع وجدنا القرآن الكريم يفكك الأصول الثقافية والمعـــرفية التي تحرك الكفار والخاطئين في حياقم، ولذلك اهتم بذكر أقـــوالهم ومتبنـــياقم الفكـــرية الـــتي يظهروها على شكل أقوال أو مناقشات، فلو تتبعنا كلمة (قالوا، يقولون) لوجدناها كثيرة في آيات القـــرآن، لا لأن هذه تحمل قيماً معرفية صحيحة، وإنما لأها خلفية حركتهم، فهو يسعى لتفكيكها وبيان خللها، والرد عليها.

ولـــو لاحظنا أن القرآن عادة لا يتوقف كثيراً لمناقشة تفاصيل أخطائهم وانحرافاقم العملية، وكيف كانوا يشربون الخمر أو يزنون.. وإنمـــا الغالـــب أنه يتعرض إلى الأصول الثقافية الباطلة التي تدعو إلى عمل باطل فيناقش تلك الأصول الثقافية.

مـــثلاً يركـــز على الرؤية العنصرية الموجودة عند بعض اليهود والنـــصارى والتي تبرر لهم الأعمال الباطلة يعالجها وينتقدها ﴿**وَقَالُوا لَـــنْ يَـــدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[2].

---

(1) ميزان الحكمة – محمد الريشهري، ج 3، ص 1870.

(2) البقرة: 111.

هــذه الفكرة تعبر عن أصل عنصري وشوفيني باطل. وتدعوهم إلى ممارسات لا أخلاقية تجاه من لا يشترك معهم في أفكارهم ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا**...﴾ لماذا يقوم بهذا العمل مع أنه خيانة واضحة؟

﴿... **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[1] يقول هؤلاء: إن المسلمين ليس لهم حق عندنا لا يتساوون معنا نحن لنا حق عليهم وهم ليس لهم حق علينا لماذا ليس لهم حق عليكم؟ لأنهم أهل النار ونحن أهل الجنة حسب ما يزعمون.

نلاحظ أن القرآن الكريم يعالج هذا الأصل الثقافي الباطل وينتقده لأنه ينتج أعمالاً وسلوكيات باطلة.. (هذه الآية تبيّن منطقهم في أكل أموال الناس، وهو قولهم بأنّ «لأهل الكتاب» أفضلية على «الأميّين» أي على المشركين والعرب الذين كانوا أمّيّين غالباً أو أن المقصود كلّ من ليس له نصيب من قراءة التوراة والإنجيل، لذلك يحقّ لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، وليس لأحد الحق أن يؤاخذهم على ذلك، حتى أنّهم ينسبون إلى اللّه تقرير التفوّق الكاذب.

لا شكّ أنّ هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرّد خيانة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون هذا حقاً من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلاً:

﴿... **وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.

---

(1) آل عمران: 75.

هـــؤلاء يعلمون أنّه ليس في كتبهم السماوية أيّ شيء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس في أموالهم، ولكنّهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب وينسبونها إلى اللّه.

هـــذه الآية تبيّن منطقهم في أكل أموال الناس، وهو قولهم بأنّ «لأهل الكتاب» أفضلية على «الأمّيّين» أي على المشركين والعرب الـــذين كانوا أمّيّين غالباً أو أن المقصود كلّ من ليس له نصيب من قـــراءة الـــتوراة والإنجـــيل، لذلك يحقّ لهم أن يستولوا على أموال الآخـــرين، ولـــيس لأحد الحق أن يؤاخذهم على ذلك، حتّى أنّهم ينسبون إلى اللّه تقرير التفوّق الكاذب.

لا شكّ أنّ هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرّد خيانة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون هذا حقاً من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلاً:

﴿... وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

هـــؤلاء يعلمون أنّه ليس في كتبهم السماوية أيّ شيء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس في أموالهم، ولكنّهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب وينسبونها إلى اللّه)[1].

مـــثال آخـــر: ﴿الَّذِينَ تَتَوفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾

وهـــم قوم ظلوا ضمن المجتمع القرشي المشرك، ولم يهاجروا، ونظراً للـــضغوط التي كانت تمارس بحقهم فقد انـــزلقوا إلى مناصرة الكفار مرغمين، وظنوا بأن الاستضعاف عذر مقبول في هذا، فحين تتوفاهم الملائكـــة وهـــم ببقائهم في المجتمع ذاك يكونون قد ظلموا أنفسهم يُـــسألون فيمَ كنتم؟ لماذا حدث عليكم هذا الظلم وهذا الاضطهاد؟ لماذا حقوقكم مصادرة؟

---

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنـــزل 560/2.

لـــديهم تبريـــر معـــتمد على أصل ثقافي باطل ﴿... **قَالُوا كُنَّا مُسْتَـــضْعَفِينَ فِـــي الأَرْضِ...**﴾ يعني جُعل علينا الاستضعاف.. الله جعلنا هكذا!! هل يقبُل هذا الكلام؟هل يقُبل الأصل الخاطئ؟ نقول لهـــم: كلا ﴿... **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[1].

فأنـــت تلاحظ مثلاً هذه الأصول الثقافية الخاطئة تنتج سلوكاً خاطئاً.. لهذا تغيير الأمة يبدأ من الإصلاح الثقافي.

أنقل لك قضية واقعية فقد اتصل أحدهم يسأل: القناعة هل هي مطلـــوبة أو غـــير مطلـــوبة؟ أجبته: مطلوبة وهي إحدى الصفات الأخلاقية.

قال: إذا كان كذلك فلماذا تتحدثون عن أن الإنسان ينبغي أن يـــصعد ويرتقـــي سواء في أموره الأخروية أو الدنيوية؟ هذا خلاف القناعة.

وكـــان لـــنا لقاء تبين فيه أنه يعمل في إحدى الوظائف براتب متواضـــع جداً، وقد قبل هذا الوضع بناء على أن القناعة كنـــز لا يفـــنى.. أوضحت له فيه خطأ هذه الفكرة.. القناعة – وإن كانت مطلوبة – إلا أنه ليس هذا محلها.

قال: كيف؟

قلـــت له: عندنا مفهومان: علو الهمة وهذا أصل من الأصول الأخلاقـــية التي وردت كثير من الروايات[2] بشأنها وقد ذكر القرآن

(1) النساء: 97.

(2) منها ما عن أمير المؤمنين: قدر الرجل على قدر همته. وعنه: كن بعيد الهمة إذا طلبت؛ ولا شرف كبعد الهمة.

في أدعية المؤمنين طموحاً عالياً للمؤمن ﴿... وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1]، ليس طموح هؤلاء أن يكونوا من المتقين بل أئمتهم! وهكذا ما ورد في الـــدعاء الذي يعلم الداعي علو الهمة (واجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك)[2].

يقابل علوَّ الهمة صغرُ النفس ودنو الهمة وهو خلق مذموم.

أما الذي يقابل القناعة فهو الطمع ومعناه (مدّ عين الإنسان إلى ما لدى الغير) بأن لا يكتفي بما عنده وإن كثر وإنما يحاول الاستيلاء علـــى ما لدى غيره وإن قل.. هنا تأتي القناعة فيقال: كن قنوعاً بما لـــديك ﴿... **وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**...﴾.

لاحـــظ أنه عندما يختلف هذا المفهوم والأصل الثقافي في ذهن الإنـــسان فيعتقد أن القناعة تعني أن يكون صغير الهمة ودانيها تتأثر حياته بهذا المقدار، لذلك كان تصحيح الأفكار من المهمات الأساسية بل الأولى لتغير أوضاع الأمة.

وبينما كان الظالمون الطغاة يحاولون أن يركزوا مفاهيم خاطئة كالـــتواكل والـــتخاذل. ويكرسوا العجز من خلال قنوات إعلامية متعددة حتى يفقد الإنسان قدرته على التحرك على التغيير ويشوهوا الثورات التحريرية حتى يصنعوا ثقافة باطلة تنعدم على أثرها الحركة في المجتمع كانت أدوار قادة الدين من المعصومين عليهم السلام تهدف تصحيح الأفكار وتغيير الثقافة بالنحو الصحيح.

---

(1) الفرقان: 74.

(2) دعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

من مظاهر
التخلف الثقافي في الأمة

تسمى الأمة الإسلامية بأسماء متعددة؛ منها أنها خير أمة أخرجت للناس، ومنها أمة اقرأ، وذلك لأن نشوءها وتكوينها ولحظة البداية فيها هذا الأمر السماوي النازل على رسول الله ﷺ.

وينبغي التأمل في تأسيس هذه الأمة على هذا الأمر مع أن مقتضى الاعتبارات العادية لو أردنا أن نلاحظها كان ينبغي مثلاً أن يأتي الأمر بالإيمان بالله أو بعبادته، فيقول مثلاً: آمن بالله أو أعبد ربك، صلّ، صم.

تُرك كل ذلك وجاءت هذه الآيات المباركات وعلى المشهور أنها أول الآيات النازلة على رسول الله ﷺ وجاءت بصورة الأمر **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾**[1].

تأمر الآيات المباركات النبي ﷺ، ومن بعده الأمة بالقراءة وسواء كانت قراءة الآيات التكوينية أو قراءة الآيات التشريعية فهي مسؤولية هذه الأمة، والدعوة إلى التفكر في أمر الخلق.

هذه الأمة التي هي أمة اقرأ، أمة الثقافة والعلم، خير أمة يفترض في كل شيء تعيش واقعاً ثقافياً متخلفاً ووضعاً علمياً

---

(1) العلق: 1 - 5.

متأخراً لا يحتاج المتأمل إلى كثير عناء لكي يلاحظه.

لكننا سنتعرض إلى بعض تلك المظاهر:

أولاً – فقر الإنتاج العلمي والفكري:

فمـــن أبرز المظاهر التي نلاحظها في تخلف الأمة، فقر إنتاجها الفكري والعلمي..

كيف يعرف مصنع أنه ناجح أو غير ناجح؟ عندما يصنع المادة المطلوبة منه بكفاءة جيدة ويعرضها السوق بكمية مناسبة عندئذ يقال هذا مصنع ناجح يصنع المادة والسلعة بكفاءة ويسوقها بكمية كبيرة. لـــو تطلعت إلى الإنتاج الثقافي والعلمي والفكري في أمتنا الإسلامية ماذا ستجد؟

ســـوف تجـــد هذه الأمة أمة مستهلكة أمة متبضعة، في الثقافة والمعرفة.

نأتي ببعض الأمثلة: جامعاتنا ومعاهد الدراسات العلمية العالية، ماذا تدرس من نظريات؟ هل هي من إنتاج هذه الأمة أو أنها نظريات تم استحـــضارها واســـتيرادها[1] من خارج الحدود. سواء في ذلك العلوم التطبيقية والعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية..

إذا كانـــت هذه الأمة تُدرس ما ينتجه الآخرون فذلك يعني أنها متسوقة متبضعة مستوردة لا إنتاج فيها.

أحـــد مظاهر التخلف الثقافي في الأمة والتخلف العلمي أنها لا تستطيع إنتاج حاجتها من العلوم والمعارف بل حتى في الأمور الثقافية

---

(1) ينبغي أن نشير إلى أنه لا عقدة لدينا من استيراد المعارف والعلوم، وتعلمها من الآخـــرين، فـــ (الحكمة ضالة المؤمن متى وجدها أخذها). و(أعلم الناس من جمع علوم الناس إلى علمه).

الدينية لا يوجد إنتاج مناسب لشأن الأمة من المعرفة والثقافة.

ولو أردنا أن نتكلم بلغة الأرقام أنقل لك – عزيزي القارئ – مـــا ذكره تقرير التنمية الإنسانية في العالم العربي، ونحن نختار العالم العـــربي باعتـــبار أن هـــذا العالم أحرى أن يكون متقدماً على بلاد المـــسلمين لأن بـــصائر القرآن وثقافة الوحي هي بهذه اللغة فالطريق أمامه مختصر.

المسلم في إندونيسيا أو باكستان أو بريطانيا أمامه عقبة اللغة لا بد أن يجتازها حتى يتعرف على ثقافة الدين. بينما الإنسان العربي لا يحتاج إلى ذلك فهي لغته الأم.

*** ميزانية البحث العلمي:**

يعـــرف تقـــدم كل مجتمع في مجاله العلمي والمعرفي بمقدار ما يـــصرف مـــن ميزانية على البحث العلمي وبقدر عدد المشتغلين في مراكـــز البحث العلمي.. وحسب هذا التقرير فإن ما يصرفه العالم العـــربي على البحث العلمي بمعدل 2% فقط من ميزانيته. في الوقت الـــتي تـــصرف بعـــض دوله على التسلح 30% من الميزانية! البحث العلمـــي هو الذي يصنع التقدم بينما السلاح لم يصنع التقدم بل لم يصنع – بذاته – نصراً.

العـــدو الإسرائيلي يصرف على البحث العلمي أكثر من 16% مـــن ميزانيته وهو دولة محاربة على خط النار مع كل الدول العربية بينما الدول العربية لا تصرف سوى 2%.. وهذه النسبة – على قلتها – لا تـــصرف في الـــبحث العلمي وإنما يصرف نصفها في أمور جانبية كعـــدد كـــبير من الموظفين البيروقراطيين، والأثاث، والبنايات وما شابه.. ويبقى للبحث العلمي المحض مقدار 1٪ من كل الميزانية!

*** عدد الذين يعملون في المراكز العلمية:**

معـــدل العاملين في مراكز البحث العلمي، في الدول العربية هو بمعـــدل 379 باحـــثاً لكل مليون إنسان. بينما المعدل الأدنى العالمي المقبول أن يكون 1000 باحث لكل مليون إنسان أي واحد بالألف، بينما في بلادنا العربية ⅓ واحد في الألف!

*** إنتاج الكتاب في العالم العربي:**

الإحصائيات تقول أنه في سنة 1991 ميلادية كان عدد عناوين الكـــتب الـــتي طبعت في البلاد العربية جميعاً 6000 عنواناً! كم هي نـــسبة هـــذا الرقم لعدد سكان العالم العربي؟ الذي يتجاوز ثلاثمائة مليون كما في بعض التقديرات.

نفـــس السنة أنتجت أميركا – وهي التي يقارب عدد سكانها عـــدد ســـكان الدول العربية مجتمعة – 100000 (مائة ألف) عنوان كتاب.. هذا من حيث عدد العناوين.. وأما مقدار ما يطبع هنا وما يطبع هناك؟ في البلاد العربية إذا طبع من كتاب خمسون ألف نسخة فذلك يعتبر عدداً استثنائياً كبيراً.. وأما هناك فالأرقام مليونية في كثير من الأحيان..

فأنت ترى أن الأرقام تفضح التقصير، وتفصح عن لزوم التغيير وذلك بالتركيز على إعطاء الاهتمام للفكر، وإعطاء الاهتمام للبحث العلمي.

كيف نحصل على التنمية؟

عندما رأى بعض العرب والمسلمين الهند – مع ما هي عليه من الفقـــر – قـــد وصلت للتقنية النووية (السلمية والحربية)، طُرح هذا الـــسؤال على العالم الإسلامي والعربي، فكان أمامهم أحد طريقين:

طريق المعرفة والبحث العلمي وإعلاء قيمة الثقافة والفكر وأن يعملوا على مدى 20 سنة..

والطـــريق الآخـــر: اســـتيراد التكنولوجيا والوسائل عن طريق استيراد المصنع بكامله! فاحضروا المصنع من هناك وركبوه هنا! فصار لدينا مصنع بتروكيمياويات، ومصنع سيارات.. وهكذا.

غير أن هذا المصنع كان له عمر افتراضي، ويصنع سيارات ذات عمـــر افتراضي فتخدم مثلاً (5) سنوات بشكل جيد، بعد 5 سنوات تطـــور العلم في أماكن أخرى فأصبحت السيارة العادية أوتوماتيك، والـــتي كانت تستهلك وقوداً أكثر طورت لتستهلك أقل، وطورت عـــوامل الرفاهية والسلامة والأداء كل ذلك بناءً على وجود باحث علمـــي، ومهندس متخصص متفرغ لهذه العملية فيطور المصنع يوماً بعد يوم.

في بلادنا ما الذي حدث؟ هذا المصنع الذي أحضروه صار بعد ســـنوات حديد خردة وعبئاً على البلد، فلا أنت قادر على تطويره لعـــدم الـــباحث المتخـــصص، ولا هو قادر على أن يلبي الحاجات المتطورة.

لقـــد كان الخطأ في التفكير أن الحضارة هي الوسائل والأشياء وأن مشكلتنا هي نقص تلك الوسائل، بينما كانت المشكلة في أزمة الأفكار كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي.

ثانياً – شيوع فكر الخرافة والأسطورة:

هذه أيضاً من مظاهر التخلف التي لا تزال إلى الآن تفعل فعلها المخرب والمفسد في فكر الأمة. وأحياناً ينشر هذا الفكر (علماء دين) أو متلبسون بهذا العنوان.

عـــالم الـــسحر شائع في بعض مجتمعاتنا وأكثر تأثيراً في عقول أبنائها من أي قاعدة ثقافية! فالشخص تحدث لديه مشكلة نفسية أو اجتماعـــية أو عائلية فيتبادر إلى ذهنه أولاً أنه مسحور، يقال: تلبسه جـــني!! وعلى أثر ذلك أصبح عندنا (خبرات) في هذا الشأن! علماء يأتـــون ويـــتكلمون مع الجني ويتخاطبون معه وبعضهم يعرض عليه العقائد الحقة ويسلم ثم يزوجه!!

نقلت بعض الصحف عن بعض هؤلاء أنهم زوجوا جنياً!!

تـــشبع بعض أبناء الأمة بهذه الحالة الأسطورية الخرافية، وكلما ذهـــبت الأمـــة وراء الأسطورة ركلت عقلها.. وهكذا نجد مظاهر التكنولوجـــيا موجودة لكن العقلية متخلفة، قشرة الحضارة موجودة ولبها وروحها غير موجود، القنوات الفضائية موجودة لكنها هي التي تعمق حالة الخرافة والأسطورة والغياب في سماء الأمة وفضائها.

الأبـــراج وبرامجها هي الأكثر متابعة لدى البعض، وهي عنوان من عناوين الغياب عن الواقع ومعادلاته بحيث صار التقدم والتراجع والربح والخسارة والنجاح والفشل ليس مربوطاً بسعي الإنسان كما يقرره القرآن وإنما ارتبط ببرج الحمل والعقرب.. أين هذا من ﴿**وَأَنْ لَـــيْسَ لِلإِنْـــسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى**﴾[1].

وحتى يتبين إلى أي مدى وصل تصديق الخرافة والبناء الفكري علـــيها، أنقل لكم ما نشره موقع العربية على الإنترنت، كان هناك خبر ومعه صورةٌ لمخلوق: الوجه والرأس فيه بشكل عنـــزة والجسم لامـــرأة والأطـــراف أطراف حيوان آخر، والتعليق عليها أنها امرأة

(1) النجم: 39 – 41.

عمانية عصت الله فمسخها الله بهذه الطريقة التي ترون..

واستقطب هذا الخبر أكثر التعليقات بالقياس إلى بقية الأخبار السياسية، والمقالات الثقافية، وقد ذهبت في ذلك مذاهب مختلفة، بعضهم قال: نعم هذا جزاء من يعصي الله ونحن أنذرناكم! أحدهم قال إنه بسبب أميركا وتدخلها في عالمنا الإسلامي، ثالث قال: حدث هذا في عمان لأن مذهبهم مذهب فاسد..

لكن أطرف وآخر تعليق قال: هذا الخبر خبر مكذوب أصلاً، وهذه الصورة صورة مركبة، ولا يوجد لها حقيقة، إذا كنتم تريدون الحقيقة اذهبوا إلى الموقع الفلاني وذكر عنوان الموقع وتبين أنه موقع لفنانة أسترالية تتصور تخيلاً لو حدث نسل بين الإنسان والماعز ماذا تكون صورة المولود؟ لو حصل تناسل بين الفرس وبين الإنسان ماذا سوف يحدث؟ هذا لا يمكن أن يحدث ولكنه تخيل، وهذه الفنانة تعرض صوراً افتراضية حسب ذوقها الفني.

وهذه واحدة من الصور أخذها أحدهم وقال إنها لامرأة عمانية عصت ربها والقراء تبرعوا بالتعليقات مما يشير لميل هذه العقول إلى الغيبيات والأساطير.

إذا تحدث مفكر أو مبتكر عن قضية ضمن القواعد العلمية فإنه لا يُثير هؤلاء الناس ولا يستقطب تفاعلهم واهتمامهم، لكن لو أتى غيره بشيء غريب لا يُصدق كالخبر السابق، ترى قسماً من الناس يركضون وراءه ولهذا فإن بعض الدعوات السخيفة قد نجحت في تجنيد أتباع لها.

ها أنت تجد بين فترة وأخرى دعوة إلى شيء خرافي، انظر في المكان الفلاني سترى صورة أحدهم!! صورة نبي أو وصي أو العالم الفلاني وتتعجب أن قسماً من المتعلمين كيف يسيرون وراء هذه الأمور!

وكثيرة هي الأمور الخرافية ولو استعرضناها لطال بنا المقام.

العقل نقطة المركز في فكر أهل البيت:

في المقابـــل نحـــن نـــرى أن أهـــل البيت عليهم السلام قد جعلـــوا للعقـــل مركـــزية عظمـــى، فمـــن كلام الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) لهشام ابن الحكم هذه العقلية الجبارة والفيلسوف العظيم..

(يـــا هـــشام اعرف العقل وجنده، والجهل وجنده تكن من المهتدين، قال هشام: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلا ما عرفتنا. فقـــال عليه السلام: يـــا هشام إن الله خلق العقل وهو أول خلق خلقه الله من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر، فأدبر. ثم قـــال لـــه: أقـــبل فأقبل. فقال الله عز وجل: خلقتك خلقاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي. ثم خلق الجهل من البحر الأجاج الظلماني، فقـــال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: أقبل، فلم يقبل. فقال له: استكبرت فلعنه)[1].

أتدري متى تنحدر الأمة؟

عـــندما يأتي أحد علمائها فيقول: إذا وصلنا نقل الرواية بسند صـــحيح وعارضـــها صريح العقل نضرب العقل بعرض الحائط فإننا أناس نتعبد بما ورد عن النبي! هكذا قال.

ونقـــول إذا كان الذي ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيه كمٌّ هائل من المكذوب والمفتعل وقد أخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله ستكثر علي الكذبة.. ما يدريك أن هذا ليس من ذاك، ولا ينفع في الأمر مجرد أن يكون بسند صـــحيح، يحتاج إلى عرض على القرآن، وأيضاً على الأصول الدينية العامة، وعلى العقل. وسيأتي الحديث عنه.

(1) تحف العقول – ابن شعبة الحراني، ص 400 – 401.

ثالثاً – الاحتماء بالماضي والافتخار به:

من مظاهر تخلف الأمة الثقافي والفكري حالة الاحتماء بالماضي والافتخار به على طريقة:

أولئك أبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع.

عـــندما يـــتحدث العالم المعاصر عن ابتكاراته النظرية والعلمية واختـــراعاته التطبيقية والعملية في هذا الزمان نتحدث نحن عن أمتنا كانـــت هي السابقة وأن علماءنا كانوا قد أسسوا العلم بينما كانت أوروبا تغرق في ظلام الجهل.

وهذا صحيح في حده التاريخي وأن أولئك قاموا بما كان ينبغي منهم وما كان مناسباً لهم ولكن ماذا عن الحاضر ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ**...﴾[1].

هذه الحالة مع الأسف تتحكم في طبقة عريضة من أبناء الأمة، حـــيث تجـــد هذه الطبقة أن الصورة المثالية للأمة أن تعيش في عصر صـــحابة الـــنبي ﷺ ولـــو استطاعت أن تعيد هذه الأمة من واقعها المعاصر إلى زمن الصحابة لفعلت ذلك كما حاولوا في تجربة طالبان وكما يحاول غيرهم في تجارب أخرى معتمدين على مقدمتين كلتاهما خاطئة:

المقدمـــة الأولى: أنه بالإمكان أن يعود الزمان بحيث ترجع هذه الأمـــة الـــتي تعـــيش في القرن الحادي والعشرين الميلادي إلى القرن السادس الميلادي.

والأخـــرى: أن هذا هو الأفضل وأن الوضع الذي عاشته الأمة في العصر الأول هو الوضع الأحسن.

---

(1) الأعراف: 169.

وأقـــول: كلـــتا المقدمتين خاطئة فلا يمكن لأمة تعيش في هذا الـــزمان أن تعود إلى الوراء أربعة عشر قرناً! ولو أمكن ذلك فليس بـــصحيح أيضاً! من الذي يقول أن ذلك العصر هو أفضل من هذا العـــصر؟ وأي دليل على ذلك؟ إن الصورة المثالية الخاطئة التي تُنسج حول ذلك العصر وكأن أبنائه أبناء الله أو ملائكة مُرسلون من عالم الغـــيب لـــيس بينهم شحناء ولا بغضاء ولا يوجد عندهم حقد ولا يتـــبعون مـــصالحهم ويطبقون الدين بحذافيره ويعملون ما أمر الله به بصورة كاملة.. هذه صورة كاذبة غير حقيقية[1].

ذلك العصر كان فيه سلام وحروب، كان فيه وفاء وخيانة، طاعـــة ومعـــصية، إخـــاء وبغضاء! لم ينـــزل أبناء ذلك العصر مـــن الـــسماء ولم يكونـــوا رسلاً من الملائكة بل كانت تتحكم

---

(1) بـــدأ بعـــض المفكرين المسلمين في الآونة الأخيرة ينتهون إلى هذه النتيجة وأنهـــا فـــتاح معرفي مهم، ففي مقال له في جريدة الوطن الكويتية بتاريخ 2005/1/31 طالـــب د. عبد الحميد الأنصاري أستاذ الشريعة في جامعة قطـــر بنـــــزع القدسية عن تاريخ الصحابة وتحليل حياتهم ضمن ظروفها الطبيعـــية، لكـــونهم بشراً يخطئون ويتحاربون، وأكد على هذا الكلام في حـــواره مع قناة العربية الفضائية حيث جاء فيه: يجب أولاً أن نفرز الدين عـــن التاريخ، الدين معطى مقدس أما تاريخ المسلمين مثله مثل أي تاريخ لأي أمة.. أما تاريخ المسلمين فهو تجارب، اختلاف الصحابة على السلطة، الـــصحابة بـــشر يصيبون ويخطئون لهم أطماع ولهم طموحات، كون أن الأنـــصار يريدون خليفة وكون أن المهاجرين يريدون خليفة، كون معاوية حارب يعني الإمام علي هذه خلافات بشر، فيجب إزالة القدسية والعصمة عـــن ذلك، أما نقول ما شجر من خلاف أو ما حصل من خلاف هذا لا نتكلم عنه حتى لا نمس القدسية هذا أخطر شيء، نحن يجب أن نتبنى المنهج النقدي، المسلمون ليسوا بدعة من بين الأمم.. وشتان بين هذا الكلام وبين مـــا قالـــه بعـــض العلماء المعاصرين من أن: (تقديس الصحابة هو الركن السادس في الإسلام)! راجع العربية نت يوم 1428/4/22.

في بعـــضهم التوجهات الدنيوية كان بعضهم لم يدخل الإيمان في قلبه[1] كان هناك مؤمنون ومنافقون[2].

قـــد يقول قائل ما تصنع بحديث (عن رسول الله: خير القرون قرني ثم الذين يلوهم ثم الذين يلوهم)؟

فنقول أولاً: لم تتحقق صحة هذا الحديث.

وعلـــى فرض صحته فلا بد من تقييده بما ورد عن رسول الله ﷺ مـــن أن مـــن أصـــحابه من سيرتد، وأهم سوف يُدفعون عن الحـــوض إلا مثل همل النعم (تعبيراً عن القلة) فلا بد من تقييده بأن ذلك القرن هو الأفضل ما لم يغيروا أو يبدلوا، أو في خصوص أولئك الذين لم يبدلوا.

علـــى أن (هذه المرويات لو صحت لا تدل على أهم قد بلغوا من الدين مبلغاً يعصمهم عن اتباع أهوائهم وشهواهم، ويدفعهم إلى الامتثال واجتناب المحرمات، ومن الجائز أن يكون الثناء عليهم باعتبار أن صـــحبتهم للنبي والتفافهم حوله يشكل مجموعة متماسكة لحماية الإســـلام مـــن أخطار الغزو المرتقب في كل لحظة من داخل البلاد وخارجهـــا، هـــذا التكتل باعتباره من مظاهر القوة التي تمكن سير الدعـــوة كـــان محبوباً لله سبحانه. مع قطع النظر من خصوصيات الأفـــراد الـــتي تخـــص كل واحد من حيث تصرفاته وأعماله. هذا بالإضافة إلى أن حديث لا تسبوا أصحابي، وأصحابي كالنجوم. هذا الحـــديث مـــن حيث اشتماله على صيغة الجمع، لا يتعين للشمول والاســـتيعاب، بـــل يصح منه ولو بالنسبة إلى المخلصين في ولائهم

---

(1) ﴿... **وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**...﴾ [الحجرات: 14].

(2) **﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...﴾** [التوبة: 101].

العـــاملين بأوامر الله المتمسكين بسنته وسيرته، ولا ينكر أحد وجود مجموعة كبيرة بين أتباعه، قد تفانوا في خدمة الإسلام، وأخلصوا في أعمـــالهم وجهادهم طمعاً في مرضاة الله وثوابه، والحديث ونظائره على تقدير صدوره من النبي لا بد وأن يكون ناظراً إلى تلك الفئة من بـــين أتـــباعه، ومـــن غير المعقول أن يقصدهم النبي ﷺ على جهة العموم، وهو المخاطب بتلك للآيات التي وصفت فريقاً منهم بالنفاق والبغي وفريقاً بالتآمر على حياته وإحباط جميع مساعيه وجهوده التي بـــذلها في سبيل الدين وتثبيت دعائمه، من غير المعقول إذ يقصدهم جمـــيعاً مـــن تلك النصوص، ويقف موقف المدافع عنهم المجامل لهم، والآيات الكثيرة تنادي بنفاقهم، وتكشفهم على واقعهم كي لا يغتر بهـــم أحـــد مـــن أصحابه الطيبين، وحتى لا تكون الصحبة ستاراً لأصـــحاب الشهوات والمطامع يستغلونها لأغراضهم ولكي لا تكون للصحابي تلك الحصانة التي تمنع من نقده وتجريحه..)[1].

علـــى أن الأحداث التي حدثت في القرن الأول – من الناحية الزمنية – تعتبر أشد الأحداث مأساوية في تاريخ المسلمين فهو الذي وقعت فيه حروب وصل عدد ضحاياها إلى ما يزيد على مئة ألف من المـــسلمين في وقت كان لقتل شخص لا بد من ضربة سيف! ليس كمـــا هو الحال الحاضر حيث قنبلة واحدة تقضي على عشرة ومائة وألف!

ولا يغـــير الحـــال لو فسرنا القرن بغير الفترة الزمنية، وقلنا إن المقـــصود منه هو الجيل، وبالتالي صحابة النبي أفضل، ثم التابعون.. وهكـــذا، فإن ما وقع من القتال والتشاتم والتلاعن بين صحابة النبي فـــضلاً عن التابعين مما يراه كل ناظر إلى التاريخ ويتعجب منه، وإذا

(1) دراسات في الحديث والمحدثين – هاشم معروف الحسني، ص 79 – 80.

كـــان هؤلاء بهذه الصفات هم خير القرون والأفضل، فكيف يكون غيرهم؟

إنـــه يعـــتقد أن لهذه الفكرة منشئين، أحدهما محاولة تنـــزيه الصحابة وتقديسهم، وحل المشكلة الفكرية التي يستدعيها وضعهم غـــير المنـــسجم، فـــلا بد من طريق يغلق فيه باب التفكير، وهو الـــتقديس والتنـــزيه وأن (نترك ما شجر بينهم) وأن لا يتحدث أحد فيه!

وثانـــيهما: فكرة الاحتماء بالماضي والعودة إليه وهي في الواقع تعبير عن الإفلاس والتخلف.

الأمـــة الـــتي تعيش أزمة في حاضرها وتعيش ضبابية في رؤية مـــستقبلها تلجأ إلى الماضي لأنها تستطيع أن تصوره بصورة حسنة، تمامـــاً على طريقة التاجر المفلس يبحث في الدفاتر العتيقة والمدونات القديمـــة عـــن ديونه على الآخرين لأنه مفلس الحاضر ولا أمل له في المستقبل.

لمـــاذا تجـــد أن الكتاب العربي والإسلامي الرائج هو الكتاب التراثـــي، الكـــتاب الـــذي أُلف قبل سبعمائة أو تسعمائة سنة بينما الكتاب الذي يُؤلف اليوم ليناقش المستقبل لا يجد له قراء؟ وإذا أراد ناشـــر أن ينشره لحسابه الخاص يقدم فيه على مغامرة؟ إنما ذلك لأن هـــذه الأمـــة أمة تراثية أمة تقرأ ما كان في الزمن الماضي لا تريد أن تفكر بالحاضر فضلاً عن أن تتطلع إلى المستقبل.

ولـــذلك فـــإن الذي يفكر تفكيراً تجارياً، إنما يقوم بطبع تلك الكـــتب التراثية بغض النظر عن منفعتها الفعلية، فإن لم يربح في هذا البلد يربح في غيره، وأنت لم يشتره الرجال تشتريه النساء..

لا للقطيعة التامة مع التاريخ:

لا يخفـــى أننا لا نريد أن نقطع الصلة بالماضي بالكامل هذا لا أحـــد يقـــول به فالقرآن الكريم وهو كتاب الحاضر والمستقبل يوجه الأمة إلى رسالات الأنبياء السابقة وإلى الماضي لكن لا لأجل الافتخار الأجـــوف والمباهاة ولا لأجل التكاثر وإنما لأجل أن يعرف الإنسان كيف تقدمت تلك المجتمعات وكيف تخلفت حتى ينطلق من مسيرته من مواطن القوة والتقدم ويترك جوانب التأخر والإعاقات جانباً.

ونقـــول: إن هناك نظرتين للماضي، فتارة يكون الماضي محطة انطلاق ومدرسة وعبرة وأخرى يكون كهفاً يُلجأ إليه ومكاناً يستظل به ورداء يستدفأ به. هذه النظرة هي التي تصنع من الأمة أمة ماضوية متأخرة وأمة غائبة عن واقعها.

عندما تجد أن عالماً من علماء المسلمين قبل سبع مئة سنة يطلق أحكـــام التكفير ضمن ظروف معينة في ذلك الزمان ولكنها إلى الآن لا تـــزال تحرك مجاميع من أبناء المسلمين ليكفر بعضهم بعضاً، فيغيب هـــذا الإنسان من رؤية ما حوله، والحال أنه يستطيع أن يتعرف على واقعهـــم مباشرة وبصورة واضحة، فيترك هذا ويعتمد على أن فلاناً قـــال أن هـــذه الفـــرقة منحرفة مبتدعة لأن عندهم قرآناً غير قرآن المـــسلمين. وأنهم كذا وكذا.. فيسير جيل هذا الزمان بفكر كان قد أُنـــتج قبل سبعمائة سنة سابقة، هذه الحالة هي من مظاهر التخلف الثقافي والفكري.

إن ثقافـــة كـــل أمة ينبغي أن تنتج في زمانها لكي تجيب على إشكالات ذلك الزمان ولكي تعالج مشاكل ذلك العصر. كل عصر جديـــد يحـــتاج إلى ثقافة جديدة وفكر ومعالجات مناسبة له، وربما استفادت من الماضي ولكن لا تستطيع أن تكون أسيرة له.

من أسباب التخلف
الجانب التربوي

دعـــنا نناقش شيئاً من أسباب التخلف في الأمة: لماذا كان هذا التخلف الثقافي؟ لماذا حصل هذا التأخر بهذا المقدار؟

هـــناك أســـباب كثيرة ولكننا هنا سوف نتحدث عن الجانب التـــربوي. فنتـــساءل في هذا الجانب هل أن أجيال الأمة تنشأ تنشئة تنتهي إلى الانطلاق أو تُنشأ تنشئة تدعوها إلى التراجع والتخلف؟

مـــع الأسف يمكن القول أن التنشئة التي حصلت عليها أجيال الأمة في الغالب كانت تنتهي إلى التخلف.

- ما هي الثروة؟

لو سألنا شباب الأمة عن ما هي الثروة الحقيقية للفرد والمجتمع؟ فإنـــه يتم الحديث حالياً عن أن الدول الخليجية مثلاً دول ثرية.. لأنه يـــوجد لـــديها الـــنفط الخام المخزون تحت الأرض.. وبعض بلاد المـــسلمين لديها معادن أخرى كالفوسفات، والنحاس، والذهب.. إلخ. على هذا المعدل فإن هذه البلاد بلاد ثرية لأن لديها مقادير هائلة من المواد الخام التي تأتي بالعملة الصعبة..

هل فعلاً المواد الخام ثروة؟ أو أن المعرفة هي الثروة؟

يـــتحدث الباحـــثون عن أن الاقتصاد الذي يقوم على أساس استنضاب المواد الخام كما هو الشائع في أكثر البلاد العربية هو سبب

من أسباب تخلفها التنموي والاقتصادي[1]، وأنه سوف ينتهي في يوم مـــن الأيام عندما تنتهي أو تتناقص هذه المواد الخام، وسترتطم هذه الدول بالجدار.

مـــتى تغير فكر الأمة على مستوى المجتمعات أن هذا النمط من الاقتـــصاد ليس هو الاقتصاد المطلوب! وأن اقتصاد المعرفة والعلم هو الأســـاس. ولعلـــنا نجـــد في تراثنا الإسلامي ما يدعم هذه الفكرة كالكلمة التي يقولها أمير المؤمنين علي عليه السلام: (يا كميل العلم خير لك مـــن المال) المال يزول وينتهي؛ المال تنقصه النفقة، وأما العلم فيزكو علـــى الإنفاق، يزداد، ينمو، يكبر، هل الثقافة السائدة في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية فعلاً أن العلم خير لك من المال! كلا.

المـــثل الشعبي المأثور واللي يؤثر تأثيراً مباشراً على الكثير يقول: (عندك فلس تسوى فلس) في مقابل هذا كإنسان كوجود كمخلوق ماذا تساوي في هذه الأثناء؟ صفراً!

هـــل يرضى الإنسان لنفسه هذه الإهانة أن يقول إن وجودي يساوي صفراً! عقلي يساوي صفراً، قدرتي تساوي صفراً.

ينقلون أن هارون الرشيد استدعى بهلول، وقد كان أحد العلماء لكن طُلب للقضاء ففر بدينه وأظهر الجنون! استدعاه هارون الرشيد يـــوماً وقـــد لبس أفخر ملابسه، قال له: كم أنا عندك، كم أساوي عـــندك؟ تطلـــع بهلول إليه، فقال: مئة دينار، فغضب وقال: ويحك ملابـــسي قيمتها مئة دينار! قال: هو ما أردت! يعني أنت لا تساوي غير الملابس التي تلبسها.

مـــتى ما تحول في وعي هذه الأمة أن العلم خير للأمة من المال،

---

(1) تقرير التنمية الإنسانية العربية عام 2003م.

وأن المعــــرفة هــــي الركيـــزة والفريضة الغائبة ترقب أن يحصل تقدم وتنمية، وعلو لهذه الأمة وهذا يحتاج إلى تربية خاصة. تربية لا تجعل الغني الأمي أعلى منـــزلة في المجتمع من الأستاذ الجامعي.

وإذا أهملـــت الأمـــة الفكر و لم تعتن بالمعرفة فإنها تصبح طعمة المتآمـــرين والمـــستغلين السياسيين، يذكر أحد الكتاب هذه القصة المعبرة: كان مقرراً أن تجري انتخابات في إحدى المناطق وكان أحد المرشـــحين المتنافسين في هذا الموقع مثقفاً لديه أفكار تقدمية وبرنامج اجتماعـــي لكنه لا يملك أموالاً كثيرة بينما كان الطرف المنافس له شـــخص عـــنده مال وليس له معرفة، فكّر هذا الثاني أني إذا تركت منافسي يتحدث مع الناس سوف يتنورون ويتعلمون وبالتالي سيفوز فماذا أصنع؟

جمع أهل المنطقة قال لهم: هذا فلان المرشح شخص ديمقراطي، ولكنه هل تعرفون معنى الديمقراطية؟ قالوا: لا نعرف معناها!

أجـــاب: الديمقراطية تعني: أن المرأة لا يكون لها زوج واحد بـــل يـــصبح لها عشرة أزواج يشتركون معه فيها! ولا أحد يقف أمـــامهم. هذا المرشح يدعو إلى الحرية، هل تعرفون معنى الحرية؟ الحـــرية تعني أن يمارس كل واحد المنكرات ولا أحد يعترض، يعني لـــو أراد أبناؤك فعل الفاحشة مع بناتك فلا أحد ينكر عليه، لأنه حـــر، هـــذا معنى الحرية، فاذهبوا واسألوه إن كان يؤمن بالحرية والديمقراطية أو لا؟

ذهـــبوا إليه وسألوه، فقال: نعم وأفتخر أنني أؤمن بالديمقراطية والحرية.

وكانت النتيجة واضحة يوم الانتخابات، فقد فشل هذا المفكر والنافع للمجتمع بينما فاز ذلك المزور.

لقـــد تم ســـوق هذه المجموعة البشرية إلى مثل هذا المصير لعدم وجود الوعي والثقافة.

أبناؤنا والعلاقة مع الكتاب:

مما يرتبط بالجانب التربوي: العلاقة بين الطالب وبين الكتاب.. كـــيف نصنعها في المدرسة؟ وفي البيت؟ نحن نخلق في الغالب علاقة متشنجة بين الشاب وبين الكتاب.

العلاقـــة علاقة قطيعة، فالطالب يرى الكتاب – عبر ممارسات مـــتعددة – تحدياً له، لأنه إذا لم يحفظ هذا السطر يحصل على ضربة علـــى رأسه من المدرس، وإذا تعثر في الحصول على درجة جيدة في الامتحان حصلت له مشكلة مع والده، وإذا لم ينجز وظيفته المدرسية ينتهـــي إلى سخرية المدرس أو المدير منه، وتتراكم هذه الأمور يوماً بعـــد يوم، وسنة بعد أخرى، فتجعل الكتاب في ذهن الطالب عنواناً للتحدي، ولافتة للعقاب وللفشل، إلا القليل ممن يستطيع أن يتجاوز هذه العلاقة.

هـــل راقبت يوماً ما الذي يحدث عند خروج الطلاب من قاعة الامـــتحانات النهائـــية.. مـــاذا يصنع الطلاب بالكتاب؟ هل يقول الطالـــب هذا كتاب جيد دعني أحتفظ به في مكانه المناسب؟ حتى طـــريقة رمـــيه يرميه عالياً في الفضاء حتى يتمزق! أو يأخذه ويقطعه بيده مستمتعاً.. هل هي علاقة و(خير جليس في الزمان كتاب)؟

هذا عن الكتاب المدرسي.. ماذا عن غيره؟

كم يقرأ الطالب الجامعي من الكتب؟ وكم نسبة من قرأ كتاباً إضافياً غير كتب المنهج الدراسي الجامعي؟ لقد أخذت عينة عشوائية مـــن جامعـــة دمشق تبلغ ألف شخص.. وتبين أن الذين قرأوا كتاباً

واحـــداً وما فوق من تلك العينة خارج المنهج الدراسي 17% فقط وهؤلاء نخبة المجتمع..

أما إذا أردت الحالة العامة فكم عدد الكتب التي يقرأها الإنسان العربي والمسلم في السنة؟

إحـــصائية أخـــرى تقول كما في تقرير التنمية الإنسانية العربية وصحف أخرى: إنه في الوقت الذي يقرأ الفرد الأميركي (11) كتاباً في الـــسنة كمعـــدل عـــام، ويقـــرأ البريطاني (7) كتب في السنة والإسرائيلي (6) كتب.. يقرأ العربي ربع صفحة فقط!!

هذا المجتمع الذي يقرأ الفرد فيه ربع صفحة فقط في السنة كاملة كـــيف له أن ينهض.. لا بد أن تفكر الأمة أن العلم هو ثروتها، وأن المعرفة هو كنـــزها..

أثر الاستبداد في تخلف الأمة

الجانب السياسي

يتـــناول هـــذا الموضوع جانباً من أثر الاستبداد[1] في تكريس التخلف الثقافي والفكري في الأمة، ونقدم لذلك بمقدمة هي أن هناك ميلاً لدى بعض الفئات في أمتنا العربية والإسلامية إلى إلقاء المسؤولية خـــارج الحدود، وإلى تعليق الأسباب على غير ما هو سبب حقيقي لهـــا، فـــإذا سئلت هذه الفئة لماذا تعيش الأمة هذا التخلف؟ سيكون الجواب سريعاً بسبب الاستعمار.

الاســـتعمار في نظر هؤلاء هو الذي صنع التأخر والتخلف في الأمـــة، إســـرائيل هي التي شغلت الأمة عن العلم والمعرفة بالحرب فعطلـــت مسيرها تجاه التنمية والتقدم، مؤامرات الأعداء هي التي تمنع حركة الأمة باتجاه العلو والارتفاع، كيد الكفار هو الذي يؤخر هذه الأمة والمؤامرة المستمرة من قبلهم هي التي تعيقها، وهكذا تسوق لك هذه الفئة أكواماً من الأسباب كلها تنتمي إلى الخارج وكأن التخلف صـــناعة خارجية وليس خاضعاً لقوله تعالى: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**...﴾[2].

بيـــنما يشير القرآن الكريم وتجارب الأمم إلى أن الأمة لا تتأخر إلا إذا كـــان بداخلـــها مرض يمنعها من التقدم ولا تتخلف إلا إذا

---

(1) للتفصيل يمكن مراجعة كتاب: رؤى في قضايا الاستبداد والحرية – للمؤلف.

(2) الرعد: 11.

أرادت لنفسها أن تتخلف أو قبلت بمن يفرض عليها هذا التخلف، أما الأمة الواعية، النشطة، التي ترفض القعود والجمود وأفكار التكاسل واليأس هذه أمة لا يضرها كيد استعمار ولا مؤامرة عدو ولا غير ذلك.

الأمة في هذه الحالة مثل البدن الذي يصاب بالحمى والمرض، فإن الميكروب لا ينفذ إليه إلا عندما يجده فاقداً للدفاعات وعديم المناعة فينفذ إليه ويستوطن فيه.

أما إذا كان هذا البدن قوي المناعة آنئذ يصطدم الميكروب بجدار من المناعة فينكفئ على عقبه. الأمة التي يوجد فيها وعي لا يمكن للمستعمر أن يصنع فيها شيئاً مهمًّاً، والتي تتحمل المسؤولية لا يمكن لمؤامرات الأعداء أن تتحكم في مصيرها فالمشكلة مشكلة داخلية أولاً وبالذات، ثم بعد ذلك تأتي الأسباب الخارجية كعوامل مساعدة.

وإذا أُريد البدء في تنمية الأمة فلا بد أن نبدأ من الداخل متمثلين قول الله تعالى: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**...﴾.. إذا غيرت الأمة ثقافتها وممارستها السياسية وشأنها الاجتماعي بحيث تتحمل المسؤولية آنئذ – وليس قبله – فإن الله يغير ما بها وما يجري عليها وهذا قانون عام.. ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1].

مع الالتفات للآية، فإن القرآن لا يقول على قوم مسلمين أو عرب أو في هذه المنطقة أو تلك وإنما يبين أن هذا قانون إلهي وسنة ربانية: إن المجتمع – أيّاً كان – إنما يتغير ما به وأوضاعه الخارجية،

(1) الأنفال: 53.

إذا تغير ما بداخله من الثقافة والفكر من الاعتقادات والمنطلقات.

لـــذلك لا ينبغـــي أن نـــصدق بأن المشكلة هي في المؤامرات الخارجـــية بـــل المـــشكلة هي بالداخل، المشكلة هي عندي وعندك وعندنا وعندكم وعنده وعندها وعندهم وعندهن.

من جملة المؤثرات في بقاء التخلف في الأمة: الاستبداد.

الاســـتبداد شـــأن داخلي يؤثر في الأمة، فيكرس فيها التخلف والتأخـــر والتقهقر فلو نظرنا إلى الآية المباركة التي تقول: ﴿... **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾.

وينبغـــي هـــنا ملاحظة أن القرآن الكريم يكثر من الحديث عن تجـــربة بني إسرائيل ولعل جهة ذلك أن التجربة التي خاضها المجتمع الإســـرائيلي مع أنبيائه شبيهة بالتجربة التي سيخوضها المجتمع المسلم مـــع النـــبوة والإمامـــة فالمكونات الشخصية بين الشعبين متشابهة، والمـــنطقة الجغرافية منطقة متقاربة وبالتالي فالمؤثرات العامة مؤثرات مـــتقاربة لـــذلك يفترض أن أخذ العبر والدروس من هذا المجتمع هو أكثر فائدة من أخذها من بقية المجتمعات.

فكان أن قدم القرآن الكريم تجربة المجتمع الإسرائيلي من خلال جهات متعددة.. راجعوا سورة البقرة سوف تجدون حديث مفصلاً عـــن هذا المجتمع بشكل عام كما تحدث في مواضع أخرى عن تجربة بعـــض الفـــئات في هذا المجتمع بنحو خاص مثلاً عن قارون وهامان وفـــرعون، تحدث عن رجال الدين المزيفين مبيناً أن هامان باعتباره واحـــداً من الكهنة وسدنة الدين الذين يمارسون دوراً سيئاً في تخدير الأمـــة وتمهـــيد طريق فرعون لاستعبادها، تحدث عن أن القوة المالية يمكـــن أن تـــتحول إلى قوة مدمرة عندما يطغى هذا الإنسان ويبغي ويـــتجاوز الحدود في صورة قارون وبيّن أيضاً أن السلطة السياسية

المـــستكبرة – متمثلة في فرعون – من الممكن أن يصل بها الأمر أن تدعي أن لا إله سواها ولا رأي إلا رأيها ولا صواب إلا عندها وأما الباقون فكل كلامهم هراء وكل عقولهم هباء. **﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى...﴾**.

يقـــول هـــذا المستبد: إنني أفتح نوافذ الرؤية والمعرفة في المجتمع بالمقـــدار الـــذي أراه. بالطبع لن يكون ذلك المقدار إلا بنحو يدعم سلطة فرعون.. ولذلك فقد استنكر فرعون كيف أن قسماً من الناس قـــد وصلوا معرفة من دون إذنه؟ كما ينقل القرآن في قضية السحرة **﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾**[1] لقد فتح لهم باباً محدوداً من المعرفة فإذا بموسى وهارون يفتحان لهؤلاء السحرة أبواب المعرفة مشرعة ويُريان السحرة قدرة الله الذي أودعها في عصا يابسة فانقلبت إلى ثعبان يلقف ما يؤفكون.. كانت ردة فعل فرعون مـــاذا؟ **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾**؟[2].. أنا الذي مـــا أُريكم إلا ما أرى كيف تجاوزتم ذلك؟ **﴿... فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُـــمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾**[3]!

إن هـــذه العقلـــية **﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَـــبِيلَ الرَّشَـــادِ﴾** وعقلية أن (الشيوخ أبخص – أعرف –) وأنه لا توجد معرفة ولا ثقافة إلا التي يملكها المستبد هي أسوأ آثار الاستبداد في تكريس التخلف.

---

(1) طه: 70.

(2) الأعراف: 123.

(3) طه: 71.

(وهذه هي حال كافة الطواغيت والجبّارين على طول التأريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره، ولا يسمحون لأحد في إبداء وجهة نظر مخالفة لما يقولون، فهم يظنون أن عقلهم كامل، وأن الآخرين لا يملكون علماً ولا عقلاً... وهذا هو منتهى الجهل والحماقة)[1].

إن كل مخلوق إنساني خلق معه عقل، ويحاسب على أساسه، حيث يستطيع أن يكتشف ويتأمل.. فما هو معنى (ما أريكم إلا ما أرى) يعني أن عقولكم مجتمعة أقل من عقلي منفرداً!!

هذه الحالة التي ينتهي إليها الاستبداد هي من الأسباب التي كرست التخلف في واقعنا الثقافي في أمة العرب والمسلمين حالات الاستبداد الموجودة كيف ذلك؟

الحاكمون الانقلابيون:

لو لاحظنا الفئة السياسية التي حكمت بلاد المسلمين في الفترات المختلفة لما وجدناها ناشئة من وسط معرفي أو ثقافي متميز وإنما نشأت في الغالب من وسط تقليدي قبلي أو وسط عسكري عبر الانقلابات وما شابه ذلك قد تقول: ما الفرق في النتيجة؟

الفرق هو إذا جاء أحدهم من وسط ثقافي أصبح الحاكم يعرف قيمة الثقافة والمعرفة ويعرف كم هي نافعة للأمة فسيجعل كل جهده في هذا الجانب. أما إذا جاء عسكري مثلاً وأصبح قائد الأمة، أو جاء تقليدي لا يعرف قيمة العلم أو المعرفة، فسينعكس ذلك بشكل واضح بنحو سلبي على موقعهما في حياة الأمة..

---

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل 248/15.

بـــل لقد رأينا أن الحالة السياسية المستبدة التي سادت في بعض الـــبلاد الإسلامية انتهت إلى طرد الكفاءات العلمية ولو بشكل غير مباشر وذلك أنه لو تحدث ذلك المفكر، والعالم الكفوء، بما انتهى إليه فكـــره، فـــإن عقلية (ما أريكم إلا ما أرى) تمنعه. فإن سكت مات بغصته، وإذا تحدى صار شهيد كلمته ووعيه، فيختار البعض أن يخرج مهاجراً فيتواصل نـــزيف هجرة الأدمغة والعقول.

فقـــد تحدث تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام 2003م، عن تنامي ظاهرة هجرة الأدمغة العربية مما يعني خسارة كلفة إعداد وتدريب هذه الكفـــاءات، كما تمثل فرصاً مضاعة من الإسهام في التنمية. فمن أصل 300.000 مـــن خريجي المرحلة الجامعية الأولى من الجامعات العربية في العـــام الدراســـي 1995/1996م يقدر أن نحو 25% هاجروا إلى أميركا الـــشمالية ودول الـــسوق الأوروبية، وبين عامي 1998 و2000م غادر أكثر من 15000 طبيب عربي إلى الخارج. ويقدر أنه بحلول العام 1976 كان قد غادر البلدان العربية نحو 23% من المهندسين و50% من الأطباء و15% من حملة الشهادات الجامعية الأولى.

مأساة الفكر مع الاستبداد:

إن وضع الكتاب والفكر في أمتنا الإسلامية ليلخص مأساة الأمة في سائر النواحي والجهات.

لقـــد أصـــبح الكـــتاب في كثير من المناطق جرماً يُضبط به صاحبه! إحدى الصحف نشرت أن الشرطة الدينية في بلد مسلم، قـــد عرضت مضبوطاتها للزائرين، ما هي هذه المضبوطات وشواهد الجـــرم؟ نـــسخة من الإنجيل وكتب لبعض المذاهب الإسلامية غير المتوافقة مع المذهب الرسمي!

أنّـــى لهذه الأمة أن تنهض من تخلفها وهي تتعامل مع الكتاب كمـــضبوط جرمـــي؟وفي بعـــض الحـــالات أسوأ مما تتعامل به مع المخدرات والأسلحة؟ وصار يُتلف كما تتلف السموم؟

لقـــد أشار رئيس اتحاد الناشرين العرب في إحدى مقابلاته إلى جانب من المشكلة عندما قال: أزمة الكتاب في العالم العربي أنه لا بد أن يمـــر علـــى 22 رقيباً مزاجياً! ونفس هذا الكلام جاء في التقرير الصادر عن الأمم المتحدة 2003 عن التنمية الإنسانية العربية.

ثم أي كتاب سيخرج إلى القراء إذا كان سيجتاز مزاجية اثنين وعشرين رقيباً؟ لكي يتجاوز كل هذه العقبات، لا بد أن يكون بلا لـــون ولا طعم ولا رائحة، فإن الرقيب التقليدي إذا رأى في الكتاب فكـــراً تقدمياً منع دخوله، وإذا كان من مذهب معين وكان الكتاب ينبعث من فكر مذهبي آخر لم يسمح به، وهكذا لو كان ينتمي إلى جهة سياسية معينة، ورأى في الكتاب رائحة سياسية أخرى لم يقبل له.. وهكذا.

فـــأي كتاب بعد هذا يمكن أن ينجو من كل هؤلاء غير تفسير الأحـــلام؟ تفسير الأحلام ليس فيه لون ولا طعم ولا رائحة ليس مع أحـــد ولا ضـــد أحد لا يقدم ولا يؤخر، لا ينقل من السكون إلى الحـــركة، وإنمـــا ينقله من اليقظة إلى النوم، يقول له: تعلم معادلات النوم والرؤى والأحلام..

ويـــتعجب الإنـــسان كيف تقبل هذه الأمة بما يشبه الإخصاء الفكـــري والنظري؟ عندما تقبل بشخص أشبه الناس بالأمي، فيصبح رقـــيب الإعـــلام الـــذي يوجه ثقافة كل المجتمع ويتحكم فيها منعاً وسماحـــاً، فيكون البروفيسور الكفوء، والاقتصادي الكبير والسياسي المخضرم والمفكر العالم.. كل هؤلاء، كتاباتهم ونظرياتهم تحت سيف

قلـــم هـــذا الإنـــسان الذي لا يقدر على كتابة سطرين إلا بالكاد! وأحـــياناً كثيرة لا يفهم ما هو المكتوب في الكتاب، ولا المقصود من سطوره، ولكنه يحتاط فيمنع الكتاب على أي حال!!

هـــذه ليست طرفة، وإنما واقع تعيشه الأمة مع الأسف. وهي نفس عقلية (ما أريكم إلا ما أرى). وهذه المأساة تأتي لتكمل مأساة أخرى تم الحديث وهي فقر إنتاجها الثقافي والفكري.. فإضافة إليه، فإن ما ينتج لا يسمح له.

لقـــد جعلت منظمة (مراسلون بلا حدود)[1] حدوداً ومقاييس للحـــد الأدنى المعقول من حرية التعبير وانتشار الكتاب واستعرضت دول العـــالم وأي هذه الدول تحتوي على ذلك، وذكرت أسماء (50) دولـــة مـــن دول العالم فلم يكن بين هذه الدول الخمسين أي دولة عربية واحدة!

وفي كـــل ســـنة يتم اختيار عاصمة من عواصم الدول العربية لتكون عاصمة الثقافة العربية[2]، ويقام فيها معرض للكتاب وندوات

---

(1) «ولم تحظ أي دولة عربية بموقع ضمن الدول الخمسين الأولى، فقد حل لبنان في الموقع 56، والبحرين في الموقع 67، والكويت في الموقع 78، والسلطة الفلسطينية في الموقع 82، والمغرب في الموقع 89، والجزائر في الموقع 95، والأردن في الموقع 99، ومـــصر في الموقع 101، واليمن 103، والسودان 105، والسعودية 125، وســـوريا 126، وتـــونس 128، وليبيا 129، والعراق 130. ولكن القائمة لم تتطرق إلى أي من قطر أو دولة الإمارات العربية المتحدة أما إسرائيل، فقد حلت في الموقع 92» عن تقرير منظمة مراسلون بلا حدود عام 2002.

(2) وكانـــت تجـــربة العواصم الثقافية العربية قد انطلقت في الوطن العربي بإعلان القاهرة عاصمة للثقافة العربية عام 1996، وتونس عام 1997 بناء على اقتراح مـــن المجمـــوعة العربية في اليونسكو خلال اجتماع اللجنة الدولية الحكومية للعشرية العالمية للتنمية الثقافية (باريس: 3 – 7 أبريل 1995). وتواصلت هذه التجربة لتشمل مدينة الشارقة عام 1998، ثم مدينة بيروت عام 1999.

وتكريم مؤلفين، وانتخاب الكتاب الأفضل لتلك السنة، وضمن هذا البرنامج في إحدى العواصم العربية للثقافة، رشحت رواية لكاتب محلي بحسب تقييم النقاد كأفضل رواية لتفوز بالجائزة الأولى في الإبداع الأدبي، وكُرّم المؤلف في المعرض، وتمت الإشادة بالرواية! إلى هنا والخبر طبيعي، غير أن الغريب والظريف في الأمر أن تلك الرواية ممنوعة في ذلك البلد وغير موجودة في المكتبات! لأن الرقيب لم تعجبه أو لم يعجبه مؤلفها!

جائزة الإبداع في عاصمة الثقافة ممنوعة في تلك العاصمة.

إشكالات أمام حرية الكتاب:

ربما يقول أحدهم، وهل من الصحيح أن نترك الحبل على الغارب؟ فإن من المهم أن نحمي البلد وثقافته، وشبابه من الأفكار الوافدة غير الصحيحة والتحديات، لأن عدم الرقابة فيه تهديد للثوابت الدينية والقيم الأخلاقية!

والجواب على ذلك:

أولاً: أن التواصل اليوم على مستوى العالم أسهل من السهل، وما عاد يمكن أن تمنع الأفكار من خلال رقيب وزارة الإعلام، مع هذا الانتشار الهائل للإنترنت. والفضائيات.. فماذا تستطيع أن تصنع وزارات الإعلام؟

عام 2000 مدينة الرياض (المملكة العربية السعودية)، عام 2001 مدينة الكويت (دولة الكويت)، عام 2002 مدينة عمان (المملكة الأردنية الهاشمية)، عام 2003 مدينة الرباط (المملكة المغربية)، عام 2004 مدينة صنعاء (الجمهورية اليمنية)، عام 2005 مدينة الخرطوم (جمهورية السودان)، عن موقع: صنعاء 2004. على الإنترنت.

وثانياً: الكتاب لا يوجه بالمنع، والفكر لا يقابل بالمصادرة، وإنما يعــالج بالفكر الأفضل، وهذا وحده الكفيل بالقضاء عليه. لقد رأينا القــرآن الكريم وهو وحي الله المنــزل وكلامه المقدس ينقل أفكار الكفار، وهي (كألفاظ) جزء من آيات القرآن يترتب عليها ما يترتب علــى سائر الآيات من الأحكام من عدم جواز هتكها أو مسها بغير وضوء مثلاً، وما شابه.

فالقــرآن عندما يقول: وقالوا ويقولون.. فإن هذه هي أفكار الكفــار ولو لم ينقلها القرآن لما عرفناها وما اطلعنا عليها. ﴿... **قَالَ الْكَافِــرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ**﴾ ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ...**﴾ ﴿**وَقَالُوا اتَّخَــذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ...**﴾ ﴿**وَقَالُوا لَوْلاَ أُنــزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...**﴾ ﴿**وَقَالُــوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ...**﴾ ﴿**وَقَالُوا لَوْلاَ نــزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾.

ثم رد عليها وفندها وهذا معنى أن الفكر لا يواجه إلا بالفكر.

أحد الناشطين الإسلاميين قال: كنت في دولة أوروبية في أوائل التــسعينات، وأردت إصدار مجلة إسلامية، ففكرت أن أجعل الأمر قانونــياً، وقلت أستصدر إجازة لذلك فذهبت لوزارة الإعلام، فلم أعثــر علــيها سألت عن وزارة الإرشاد مثلاً، لا توجد.. فتعجبت كيف أن بلداً لا يوجد فيه جهة تستأذن في إصدار مجلة، لقد تعودت علــى أن المطوية أو النشرة إذا أردت إصدارها في بلدي أحتاج إلى عشرات المراجعات، والوزارات والإدارات! من الإعلام، إلى التجارة، والمخابرات، ووزارة الداخلية، وهكذا..

ولهذا وجدنا أنه حتى الفكر الإسلامي ينتشر في تلك البلاد أكثر مما ينتشر في البلاد الإسلامية.

إن طـــريق هذه الأمة إذا أرادت التخلص من التخلف الفكري والثقافي هو أن تنهج منهج حرية التفكير أولاً ثم حرية التعبير عنه ثانياً ثم حرية النشر والتوزيع ثالثاً.

إن عقلية ﴿... **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَـــادِ**﴾ هـــي التي أودت بالمجتمع الإسرائيلي إلى أن صار هذا المـــستبد ﴿**يَقْـــدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ**﴾[1].

(1) هود: 98).

كيف نحصل
على جيل قارئ

يتـــناول هذا الموضوع كيفية خلق جيل قارئ مثقف في الأمة، وقـــبله سوف يكون لنا وقفة مع هذه الآيات المباركات لكي نتلمس بعـــض معانـــيها ونتدبر في ألفاظها وكلماها ذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية وتدبر وتأمل.

وكلمـــا نظر الإنسان فيه وجد معرفة جديدة وعلماً حادثاً وأنه لا يـــزداد على النشر إلا طراوة وجدةً. والآية المباركة تبدأ بأمر إلهي سيكون هو فاتحة الرسالة الإسلامية وبدء تكوين المجتمع الإسلامي.. وافتـــتاح ذلـــك بهذا الأمر له مغزى ومعنى عميق. فالعادة أن يهتم المؤسس بأهم الأشياء وأكثرها إلحاحاً في نظره.. فلو انشغل في أثناء التأســـيس بمعالجة أمر كمالي، والتركيز على قضية قليلة الأهمية لعيب عليه ذلك.

إذا بدأ القرآن الكريم بتوجيه نبي الإسلام أن اقرأ وهو في بداية تأســـيس الدعوة وفي بداية إقامة المجتمع الإسلامي فإما أن نتصور أن قـــضية القـــراءة أمر كمالي زائد وهذا يعني الاهتمام بما هو غير مهم وهـــو خـــلاف الحكمة أو نعتقد أن هذا الأمر لما كانت البداية به والتأســـيس بواســـطته فإن له مدخلية مهمة في تأسيس هذا المجتمع وإنشائه وهذا هو الصحيح.

بدايـــة الإسلام وبداية التوجيه الديني هو اقرأ ورسالة ذلك المجتمع

أيضاً في شيء مقروء معجزته مقروءة ورسالته مقروءة وأهدافه مقروءة.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ماذا يعني باسم ربك؟

احتمل المفسرون عدة احتمالات:

الأول: اقــرأ باسم ربك أي ابدأ قراءتك بلفظ البسملة والأمر كما يقولون ظاهر في الوجوب ولهذا جعل بعض المفسرين والفقهاء هذه الآية من أدلة لزوم الابتداء بالبسملة في القراءة في الصلاة ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ أي ابدأ قراءتك القرآنية بسم الله الرحمن الرحيم. فيكون هذا المعنى حجة لمن يقول بلزوم البسملة عند قراءة القرآن الكريم[1].

ومن المعلوم أن هناك توجهين في الفقه الإسلامي، توجهاً يقول بلـــزوم أن يبدأ الإنسان بالبسملة في قراءة السورة وإلا عُدت قراءته ناقصة في الصلاة وإلى هذا يذهب فقه أهل البيت عليهم السلام على الأقـــل في خـــصوص الفاتحة ويذهب إليه جمع غفير من سائر فقهاء المسلمين. بل نقل عن بعضهم أن عدم الاعتناء بالبسملة يعني حذف 114 آية من القرآن الكريم (هي بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة).

ويعـــد أصـــحاب هذا الرأي ترك البسملة في الصلاة في قراءة القـــرآن وإثبات قول آمين في نهاية الفاتحة شيئاً غير مبرر لأن كلمة آمين ما يقال فيها أنها كلمة دعاء والدعاء غير ممنوع في الصلاة، هذا أقـــصى ما يقال فيها لكن هناك احتمال أن تكون كلمة زائدة! وأقل مـــا يقـــال في البسملة أنها مستحبة وقد يحتمل أن تكون واجبة فأمر البسملة دائر بين الوجوب وبين الاستحباب لا أحد يقول أنها حرام. ومقتضى القاعدة أن يؤتى بالبسملة وأن تترك كلمة آمين.

---

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنــزل 319/20.

الاحـــتمال الآخر أن (باسم ربك) بمعنى اقرأ مستعيناً بذات الله باســـم الله (وصـــفاته) مثل ما تقول (إياك نعبد وإياك نستعين) أنت تستعين بالله عندما تقرأ وعندما تتعلم وعندما تتفهم تستعين بمن لديه العلم المطلق والمعرفة وكل خزائن العلم تستعين بهذه الذات المقدسة.

الاحـــتمال الثالث (باسم ربك) يعني أن تكون قراءتك لأجل الله، اقــرأ تعلـــم تثقف وكل ذلك ليكن لأجل الله مثلما تقول هذا العمل يقام باسم فلان أي لأجل فلان هو الذي يرعاه..

ربك.. من هو؟ القرآن يبدأ بصفتين:

الصفة الأولى: صفة الخالقية ﴿... **الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِـــنْ عَلَقٍ**﴾ (خالق) يعني صانع الشيء من غير أدوات، الخالق يختلف بهذا عن الصانع، فالصانع يستخدم الأدوات والوسائل ويعالج الأمور حـــتى يحصل على نتيجة ويصنع شيئاً فيقال له صانع، لكنما الخالق يقوم بذلك من غير معالجة وبدون أدوات فيقال خلق، والله سبحانه وتعالى صانع من غير أداة وهو بذلك خالق (الذي خلق) الله سبحانه وتعالى خلق كل من عداه خلق الكائنات خلق السماوات والأرضين، خلق البحار والمحيطات خلق النبات خلق ما يُرى وما لا يُرى.. خلق كـــل هذا وهو شيء عظيم، لكن في هذا المقام نجد أن القرآن الكريم جـــاء بخلـــق الإنـــسان وأنه من علق.. في أماكن أخرى ذكر خلق الإنسان وعظمه وأكبره، وقال: ﴿... **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾، لكن هنا قيده بأنه من العلق ﴿**خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ لماذا؟

عـــند التأمل في العلقة وهي قطعة الدم الرطب التي تعلق بما تمر عليه.. وهي نتيجة عن ماء مهين اقترن ببويضة تشبهه في المهانة هذه العلقـــة إذا لاحظها الإنسان هي من الضعف ومن المهانة ومن العجز بلا حدود، وليس فيها بحسب الظاهر أي مقوم من مقومات الإبداع

أو الإعجـــاز.. مـــن هذا الشيء الذي ليس بشيء خلق الله سبحانه وتعـــالى هذا الإنسان وأوصله إلى درجة أن يقول له ربه: ﴿... **إِنِّي جَاعِـــلٌ فِـــي الأَرْضِ خَلِيفَةً**...﴾. هذه المسافة الهائلة من كون هذا الإنـــسان علقـــة مهينة لا تساوي شيئاً إلى كائن يحتوي على الكم العظـــيم الهائل من العلم والمعرفة والقدرة الكبيرة على الإبداع وإدارة الأرض وإعمارهـــا وهـــذا الكـــم الهائل من العواطف ومن المشاعر والقلب المتحرك..

هـــذه المسافة من علق إلى درجة النبوة في مثل رسول الله ﷺ هي مسافة عظيمة جداً.

كـــأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول للإنسان تأمل في هذه الحالـــة التي كان فيها هذا الإنسان من علقة لا تساوي شيئاً إلى أن أصبح بهذه المنـــزلة.

﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَـــمْ**﴾ سؤال: أما كان من المناسب في بيان القدرة الإلهية أن يقول الـــذي خلق والذي رزق لا سيما وأن رزق الإنسان في بطن أمه من المعاجـــز، هذا البدن الذي إذا وضعت فيه أقل عضو أو قطعة جديدة يرفـــضها، لو أضفت إصبعاً في يدك بعملية جراحية، فإن البدن كله يـــستنفر لطرد هذا الشيء الغريب، ولا بد أن يستخدم الأطباء شتى الوســـائل والأساليب لتثبيط الممانعة التي يبديها البدن للعضو الجديد، وإقـــناعه بقـــبول قطعـــة الإصبع تلك، بينما هذا الجنين يتكون في الأحـــشاء شـــيئاً فشيئاً ويكلف البدن بمسؤولية إطعامه وتخليصه من الفضلات على مدى تسعة أشهر، ويعطيه المناعة والقوة ويحميه، هذا مـــن أعظم الخلق والرزق، مع ذلك لم يذكر هنا (الذي رزق) وإنما ذكر ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾..

ولعل جهة ذلك أن هناك خلقين: خلقاً تكوينياً يصعد بالإنسان من حالة العلقة التي لا تساوي شيئاً إلى أن يكون بهذه الأعضاء والجوارح المتكاملة العظيمة جمالاً وأداءً وخلقاً آخر معنوياً وفكرياً وعقلياً يعتمد على التعليم بالقلم ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ أي رب هو؟ ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ هذا الإنسان كان من الممكن أن يبقى في حدود بدن متكامل الأعضاء الظاهرية وهذا ليس – على أهميته – له نظائر، لكن ارتفاعه في سماء العقل والمعنويات هو الأهم الذي يستحق أن يصفه الله تعالى بـ: ﴿... **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾.

(اقرأ وربك الأكرم)..ماذا صنع؟ (علم بالقلم)، وهذه خاصية للإنسان وحده، إذا علم بالقلم يقتضي أن يكون علم القراءة أيضاً.

هذا من الملازمة أن يقول (علم بالقلم) أيضاً يعلم القراءة فتنتقل العلوم والأفكار والمعارف بين الناس بهذه الطريقة ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾.

وصف الله نفسه في هذه الحالة بأنه الأكرم، هناك وصف نفسه بالخالقية ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ وهنا بالأكرمية قد يكون لأنه علم بالقلم، وهذه الآيات المباركات تشير لنا إلى أهمية موقع القراءة والتعلم والتثقف في حياة الإنسان المسلم وتدعونا إلى أن نفكر في أن الخطوة الأولى في إزالة التخلف هي أن ننشئ جيلاً مثقفاً قارئاً.

وعندما نقول: جيلاً مثقفاً وقارئاً لا نقصد بذلك خصوص الكتب الدينية فقط، بل نعتقد أن المؤمن ينبغي أن يحمل ثقافة ذات آفاق واسعة مهما أمكنه ذلك، يقرأ في الأدب العالمي والعربي والمحلي يقرأ في السياسة والتاريخ.. ويقرأ في كل ما من شأنه أن يوسع آفاقه الثقافية. نعم الثقافة الدينية في رأس أولويات الإنسان فبعضها قد يكون واجباً عينياً مثل تعلم المسائل الابتلائية التي تتوقف عليها صحة

العبادات وسلامة العقائد وبعضها لا يكون كذلك.

إن حديثـــنا هو في اتجاه أن ننشئ الجيل القارئ المثقف، الجيل النهم لمطالعة الكتاب، هذا العمل يمر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى تبدأ ببيئة البيت:

ومسؤولية الوالدين، فمن الضروري أن يفكر الوالدان في إشاعة عـــادة القـــراءة وثقافة القراءة منذ الصغر.. وهنا تأتي العادات التي يسلكها الأبوان لتصنع للأولاد عادات طيبة، فالوالد الذي يقرأ أمام أولاده كتاباً لمدة من الزمان، والأم التي تصنع كذلك، فإن كلاً منهما عـــندما ينصح أولاده بالمطالعة يعطي لنصحه مصداقية، بينما إذا رأى الأولاد أن أباهم لا يصرف نظره عن جهاز التلفزيون من أول قدومه إلى البـــيت وإلى أن يغـــادره للخارج أو إلى النوم، فإن ذلك يشكل قدوة سيئة فيما يرتبط بموضوع المطالعة والقراءة، ولا يستطيع الوالد هـــنا أن ينصح أبناءه بترك الإكثار من النظر إلى التلفزيون والانشغال بما هو أكثر فائدة من المطالعة وأمثالها!

إن جزءاً كبيراً من التربية هو محاكاة وتقليد، ولا يحتاج ذلك إلى كـــثير كـــلام وتوجيه. وإن كثيراً من وقت الناس يضيع في الانتظار تارة، وفي قطع المسافات أخرى من دون أن يستغل بنحو نافع.

لاحـــظ أن قسماً من مسافري الحافلات أو القطارات لمسافات طـــويلة قـــد لا تقل عن ثمان ساعات مفيدة لا يستفيدون من هذا الوقت، ولو أريد استغلالها في القراءة لعادت عليهم بفوائد كثيرة.

بيـــنما الملاحـــظ في البلاد الغربية أن المترو وقطارات الأنفاق ومـــسافاتها ليـــست بذلك البعد من محطة لأخرى، ولكن كثيراً من الراكبين فيها يستفيدون من هذه الفرصة في مطالعة الكتب.

وهكذا الحال عندما ينتظر الإنسان دوره في مواقع الانتظار مثل مواعـــيد الطبيب، والتي قد لا يتفق فيها دقة الوقت والتقدير، فترى الواحد يظل منتظراً في حالة متوترة وقلقة، ينظر إلى الذاهب والقادم، ويطرق الباب على الطبيب بين فترة وأخرى.. لو كان قد حمل معه كـــتاباً وجلـــس ينظر فيه منتظراً دوره لوفّر على نفسه ذلك التوتر، وانتفع بما مرّ عليه من وقت..

وهـــذا إنما يحصل من خلال التربية والمحاكاة، فإذا كان الوالدان يقـــومان بمـــثل هذا في مثل هذه المواقع أخذ الأولاد نفس الطريقة والتزموا بها وساروا عليها.

عـــندما نـــريد أن ننشئ جيلاً قارئاً فلا بد وأن نبدأ من داخل البـــيت.. أن نأخـــذ أبـــناءنا الصغار وبناتنا إلى مكتبة لبيع الكتب ونـــرغبهم في شـــراء ما يريدون، وأدعهم يختارون ما يرغبون، وفي الفترة الأولى لا ينبغي أن نتدخل كثيراً في اختياراتهم، المطلوب هو أن تـــتكون بينه وبين الكتاب علاقة وأنس ومحبة.. فإذا تمكنت منه عادة القـــراءة وصار الكتاب أنيساً له وجليساً له ذاك الوقت يمكن برمجة قراءته وتوجيهها.

المرحلة الثانية بيئة المدرسة:

ويأتي دور المدرسين والمعلمات حيث ينبغي أن يفكر هؤلاء في تشويق الطالب والطالبة إلى القراءة والمطالعة، فإننا قد نلاحظ تثبيطاً في بعـــض الأحيان، فربما جاء طالب إلى المدرس قائلاً: قرأت القصة الفلانية! فيجيبه هذا المدرس لماذا تضيع وقتك في هذه الأمور؟ احرص علـــى مذاكـــرة دروسك وتوجه إليها فعندك ضعف في هذه المادة وتلـــك.. وقـــد يكـــون المدرس منطلقاً من الحرص على مستقبله

الدراســـي، ولكنه يمارس دوره بشكل غير صحيح. إنه عندما يشتاق إلى القـــراءة ســـيقرأ الكتاب الخارجي والقصة كما سيحرص على مطالعة درسه والتشجيع خير وسيلة تربوية.

في كثير من الأماكن يعتبر التربويون مكتبة الكتاب المدرسي من الأساسيات في كل مدرسة، وإذا نظرنا إلى الإحصائيات سوف نجد تشجيعاً لوجود الكتاب الخارجي في المدرسة، سواء في صورة مكتبة عامـــة، بل وحتى مكاتب للبيع في هذه المدارس. ففي إحصائية تقول إنـــه مـــن بين (35) ألف مدرسة في بريطانيا يوجد في (10) آلاف مدرســـة منها ركن لبيع كتب رخيصة الثمن. وإن أكثر الطلاب في هـــذه المـــدارس يوفـــرون جزء من مصروفهم لشراء ذلك الكتاب الرخيص الثمن منه.

فدور المدرسة ودور المعلم مهم في الجهة.

وكـــذلك بيـــئة الأحياء والمناطق ففي كثير من المجتمعات يجد الـــبعض أن مـــن شـــأنهم أن يصنعوا مكتبة كي يطالع فيها أبناؤهم ويعتبرون هذا الأمر من مسؤولياتهم، وفي ديننا الكثير من الحث على نـــشر العلم الذي وعد عليه الإنسان بالثواب الكثير. غير أن الثقافة السائدة في بعض مجتمعاتنا لا تشجع على هذا ولا تعتبره من القربات الإلهـــية، فلو أراد أحدهم أن ينشئ مكتبة بعنوان أنها صدقة جارية، ربمـــا يعتـــرض عليه البعض ويقال له أن يتحرك لإنشاء حسينية أو مـــسجد.. ولكلٍّ فضله، ولكن هذا نشر للعلم أيضاً ونشر المعرفة فيه ثواب كبير.

ينبغي التشجيع على القراءة في مجتمعنا، وأحد أشكالها أن نعمل مـــسابقات في قراءة الكتاب، بحيث يعين كتاب أو عدة كتب، لكي يقرأ ضمن أعمار معينة، ثم تكون هناك جوائز تشجيعية.

عـــندما يأنس الشاب بالكتاب نصنع بالتدريج جيلاً قارئاً جيلاً مـــثقفاً ويرتفع بذلك مستوى الأمة. وفي غير هذه الصورة سيكون العقل العربي مهدداً.

لقـــد قال د. محمد جابر الأنصاري كلاماً قيماً في هذا الشأن: (إن هـــناك تهديداً خطيراً على عقل الأمة، وهو من أعظم الجنايات علـــى عقل الإنسان العربي وهو أن يستبدل مطالعة الكتاب بمطالعة القنوات الفضائية، ولا يقصد هنا القنوات الخلاعية، وإنما دون ذلك وهـــو مـــا يسمى بثقافة الإمتاع السطحية)، كالأفلام غير الهادفة، والكومـــيديا التي يراد منها الضحك للضحك، ولا نريد هذا أن نمنع بالمطلـــق الانفـــتاح علـــى هذه القنوات ففيها قسم نافع من البرامج الـــسياسية أو العلمية أو الثقافية.. لكن أن تتحول إلى (برنامج) يحتل النـــسبة العظمـــى مـــن وقت هذا الشاب وأن تكون مصدر ثقافته الوحيد، فهذا يشكل كارثة بالنسبة له ولأمته على السواء..

وذلك أن من أوليات الإعلام الفضائي أن يكون ممتعاً وجذاباً، ولا ينسجم هذا دائماً مع عمق المحتوى وقوة المادة.

في مقابـــل ذلـــك يؤكد القرآن على القراءة: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾.

الخرافة والتأمل العقلي

كيف نتعامل مع ظواهر الخرافة في المجتمع؟

ركّز دين الإسلام تركيزاً عظيماً على الجانب العقلي وأعطاه الدور الأسمى، وجعل أحكامه أحكاماً قاطعة، بل وجَّه الآيات القرآنية وخاطب بها أهل العقل كما في قوله تعالى: **﴿هُدىً وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾**[1] وفي قوله تعالى: **﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[2] في سبعة مواضع و**﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**[3] في ثمانية مواضع.

فالذي ينتفع بهذا التذكير هو ذلك العاقل الذي يتدبر في تلك القصص والحوادث وينتفع بها في حياته. بينما من يعيش عالم الخرافة، ويبقى في فضاء الوهم لا ينتفع حتى بالهدى القرآني والتعليم الإلهي، ما لم يحرر نفسه من الخرافات.

تظهر في مجتمعاتنا المسلمة بين آونة وأخرى بوادر وحالات خاطئة يؤمن بها قِسم من أفراد المجتمع ويستجيبون لها وبالتالي تُكرر وتُعاد، ولو تم التعامل معها بتعقل لقُضي عليها وانتهت. نشير إلى بعض هذه الأمور - مع أنها غير محصورة فيها - حيث يبدو أن

---

(1) غافر: 54.

(2) الجاثية: 13.

(3) الرعد: 4.

المشكلة أكبر من هذا المنشور والمعروف وأنها تتشكل في صور كثيرة – لكننا ننقل بعض هذه الصور لكي نلاحظ من خلالها حجم المشكلة، التي انتقلت من دائرة النساء الأميات إلى أصحاب الكفاءات بل إلى القضاء الشرعي:

* فإن محكمة في رأس الخيمة قد أصدرت حكماً قضائياً بسجن زوجة لمدة 3 شهور لاعترافها بأنها قد سحرت زوجها، وإلى هنا قد يبدو الأمر مقبولاً ومنطقياً، لكن أن تعرف أن من بين الإجراءات التي اتخذتها المحكمة، الاستماع إلى شهادة جني موجود في جسد زوجها. هذا هو غير المنطقي!

* وقال رجل سعودي يعالج بالرقية الشرعية إن جنياً حث امرأة كان يقوم بعلاجها على قتله، لكنها أخطأت في إطلاق النار عليه وقتلت زوجها. وكانت جريمة قتل ارتكبتها سيدة سعودية (40 عاماً) في داخل عيادة للعلاج بالرقية الشرعية بمنطقة العرجاء بمحافظة الطائف، وسقط ضحيتها زوجها، قد أثارت ردات فعل كبيرة ودفعت للتساؤل عن دوافع الجريمة.

* لقد أشارت دراسة قام بها محمد عبد العظيم بمركز البحوث الجنائية في القاهرة أن 250.000 مشعوذ يمارسون أعمال السحر والشعوذة في عموم الدول العربية، وأن العرب ينفقون زهاء 5 مليارات دولار سنوياً على هذه الأعمال، وأن الفقراء في مصر ينفقون 10 مليارات جنيه سنوياً على قراءة الغيب وفك السحر والعلاج من الجان.

كما كشفت – من جهة أخرى – الحملات الأمنية لمتابعة العمالة السائبة في السعودية عن وجود بيوت وأوكار متخصصة في أعمال السحر وما يرتبط بالجان وأن غالبية مرتاديها هم من عامة

المواطنين، كما أشارت دراسة نشرتها صحيفة عكاظ اعتمدت على استبيان شمل 500 ربة بيت ممن تعاملن مع خادمات في منازلهن ورؤيتهن حول تعامل هؤلاء الخادمات مع السحر، فكانت النتيجة أن 56% من ربات البيوت يعتقدن بقدرة الخادمة على ممارسة أعمال سحرية ضارة لهن أو لأفراد الأسرة، بل وأكثر من ذلك فإن 21% من هؤلاء قد أكدن على حدوث تجارب فعلية مع السحر التي مارسته الخادمات، إن هذه الدراسات - وبغض النظر عن دقة مدلولاتها العلمية - قد أشارت إجمالاً إلى ما نرمي إليه وهو عمق القناعة بالسحر والجن وتأثيره على سلوكياتنا وهو ما يستدعي وقفة تأمل للبحث والدراسة، فمحاربة الساحر والمنجم والعراف ليست السبيل إلى اجتثاث هذه الممارسات والسلوكيات الخاطئة، فذلك لن يتحقق إلا بمزيد من جهود التوعية وتصحيح القناعات، وخاصة لدى البعض منا الذين ذهبوا بعيداً في رسم العلاقة الممكنة مع الجن حتى وضعوا تصوراً دقيقاً لكيفية زواج بني البشر بهم[1].

وتحت عنوان: انتشار ثقافة الجن وسيطرة الخرافة.. على المجتمع المصري كتبت مجلة إيجبتي على الإنترنت:

(274) خرافة.. هي إجمالي الخرافات التي تحكم عدد كبير من المصريين وتسيطر على كل شيء في مصر.. نعم 274 خرافة يستيقظ عليها النائمون.. وينام عليها المستيقظون.. 274 خرافة سيطرت على الجهلاء والمثقفين.. الحكام والمحكومين..

الدراسة الميدانية التي أجراها فريق بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية والتي شارك فيها الباحثان "نجيب إسكندر

(1) مقال في صحيفة اليوم السعودية 2005/10/27.

ورشدي منصور" فجرت العديد من المفاجآت حيث توصلت إلى أن 63% مـــن المـــصريين يؤمـــنون بالخرافات بينهم 11% من المثقفين والرياضيين والفنانين والسياسيين.

وهـــي نفس النتيجة التي خرج بها الباحث محمد عبد العظيم في دراســـة علمية له حيث توصل إلى أن 31% من المصريين بينهم من يحـــتل المناصـــب العليا يؤمنون بتقمص الأرواح وأن الاعتقاد بالجان والعفاريـــت أصبح من المعتقدات الأساسية في حياة المصريين الذين يعـــتقدون بسيطرة الجن على تصرفاتهم وهناك أكثر من مليون و200 ألـــف مواطن في مصر يعتقدون بتصنيف الجن إلى أزرق وأحمر كما يعـــتقدون أن الحذاء القديم الملقى بالشارع هو الدواء الوحيد الناجح للوقاية من الجن والعفاريت الذين يسكنون المقابر والمنازل المهجورة وأن 75% مـــن المـــصريين يتحاشـــون ضرب القطط والكلاب ليلاً لاعتقادهم أن العفاريت تتشكل في أشكال هذه الحيوانات كما يعتقدون أن الجان قادر على الزواج من النساء والعكس بل والإنجاب منهم..

وقالت الدراسة إن 60% من النساء يؤمن بضرورة وضع كف في شعر الطفل حتى لا يصاب بالحول وأن 47% من المصريين يؤمنون تمامـــاً بأن رش المياه وراء الشخص المتوفى يمنع موت أحد وراءه وأن المقـــص المفـــتوح يجلب النكد.. ووضع المقص تحت رأس النائم يمنع الكابـــوس وهناك ما هو أطرف وأغرب من ذلك حيث يعتقد 60% مـــن المـــصريين أن حرق الخنفسة في الشقة غير المسكونة يجلب لها الـــسكان وأن تعليق حذاء طفل على جدران المنـــزل يجلب السعادة لسكانه..

أيضا دراسة الباحث محمد عبد العظيم أكدت على أن 30 ألف شـــخص في مـــصر يدعون علم الغيب وقراءة الفنجان والكف كما

يؤمن 70% من المصريين بقدراتهم الخارقة في معرفة ما يخبئه لهم القدر من أحداث فضلاً عن قدرات أخرى منها علاج المرضي بالأرواح.

الباحثة إكرام زايد أيضاً، قالت في دراسة لها حول الخلفة إن 60 % من النساء ترين أنه على المرأة التي يتأخر حملها أن تذهب إلى "الدحريجة" لتتدحرج سبع مرات لعلها تحقق أملها في الإنجاب فالمرأة التي لا تنجب في الشرقية مثلاً تقوم بزيارة تمثالين لرجل وامرأة وتحتضنهما تحت ملاءة ثم تستحم وتكسر زيراً من أجل الإنجاب..

في واحة سيوة هناك ضرورة لأن تستحم العروس في نبع من الماء ليلة عرسها اعتقاداً من الأهالي بوجود قوة تكسبها الخير والجمال وتبعد عنها الشر كما يؤمن 93% من نساء الريف المصري بما يسمى بالمشاهرة وهو عدم دخول أي رجل حليق الذقن على المرأة بعد ولادتها بـ 40 يوماً وكذلك عدم الدخول بلحم غير مطهي وإلا منع عنها اللبن أو تتأخر في حملها التالي.

وأن 62% من البنات في مصر يؤمن بضرورة عدم التحديق في المرآة ليلاً حتى لا يفوتهن قطار الزواج.. وأن أكثر من 50% منهن ما زلن يعتقدن في صحة قرص ركبة العروس في ليلة دخلتها حتى تصيبهم العدوى ويتزوجن في وقت قريب بعدها ومن تلحس بطن الضفدعة تستطيع الزغردة. وأن أي بنت تأكل سمكاً ولبناً يوم الأربعاء تُجن فوراً.

وأن 90% من المصريين حسب ما أورده البحث يؤمنون أشد الإيمان وحتى الآن بخرافة (الربط الجنسي) بين الأزواج. وهو إيمان لا يفرق بين أهل الريف وأهل المدينة وأنه عليهم استخدام – الأحجبة – وبالفعل يستعملها 80% من المصريين في أغراض كثيرة منها، الحماية من المرض، وإبطال تأثير العفاريت واستمالة قلب المحب،

والنجاح في العمل إلخ.. ولا يخشى المصريون من شيء قدر خشيتهم مـــن القطـــة الـــسوداء حسبما أقر 50% والذين ينظرون إلى القطة السوداء باعتبارها رمزاً للتشاؤم.

أيضاً يؤمن المصريون بأن الحجاب يقي من عين الحسود وأيضاً وضـــع قليل من الملح في كيس يعلق في رقبة الأطفال وكذلك ناب الذئب أو ناب الضبع أو رأس الهدهد.

وطـــرق الوقاية التي وضعها المصريون للوقاية من الحسد كثيرة. منها البخور "وخمسة وخميسة" والعروسة الورقية التي يتم ثقبها بإبرة الخياطة بأسماء من يريدون منع حسدهم، وذلك بقول من عين فلان وفلان إلى أن تنتهي قائمة الأسماء. ثم يتم حرق هذه العروس الورقية والاحـــتفاظ بـــناتج إحراقها. ورسمه على شكل صليب على جبهة الـــشخص المحسود. وغيرها من الخرافات التي تشيع في مصر، ولعلها توضـــح مـــن واقع الدراسات الميدانية التي عرضنا لها، أن الخرافة في مـــصر لم تعـــد خرافة أفراد وإنما تقف وراءها أيدي مجهولة تحترف تغييب الوعي ودفن عقل المصريين في ثلاجة التخريف[1]..

بـــل وصل الأمر في استغفال العقول إلى القول ببيع الجن، فقد ذكـــروا أن شخصاً في مدينة (...) يبيع الجني بمبلغ (70000) ريال، وأنه يملكه المشتري لكي يقوم الجني بكل ما يريده ذلك المشتري، وأن أرباب المال الحمقى يشترون منه الجن!

* تفـــشي ظاهرة توزيع الأوراق التي تحتوي عبارات تحذر من عـــدم تكثيرها: عندما نذهب لزيارة مسجد أو مشهد من الأماكن المقدسة تجد أحياناً في بطون كتب الأدعية أو القرآن أوراقاً تذكر أن

(1) إيجبتي على الإنترنت.

فلانـــاً مـــن الناس مثلاً رأى الإمام الفلاني فقال له كذا، أو أن ذلك الإمام أمر تلك المرأة بأن تقول للنساء أن لا يفعلن كذا... وأن الذي يفعـــل ذلك يحدث له شيء ما.. وأحياناً توزع تلك الأوراق ويلقى بها في وسط البيوت.

أو أن امـــرأة رأت في المـــنام نساءً كأنهن من الجنة! جئن إليها وجلـــسن معها على سجادة تملكها، وبعد ذلك نرى الازدحام على تلك السجادة للتبرك بها أو بالماء الذي غُسلت به!

وهكذا نلاحظ تعدد أشكال تلك الشائعات..

كـــذلك مـــا نلحظه من ربط الأمور والقضايا الحياتية بالسِّحر والجـــن في ربـــط لا ارتباط فيه! فأنت ترى. فتجد بعضهم يفسرون فشل "فلان" من الناس في دراسته أو في عمله بأنه "معمول له سِحْر أو عمل"، لا لأنه كسول أو مهمل!

والزوجان اللذان لم يستطيعا أن يبنيا علاقة طيبة بينهما، يرمون الـــسبب علـــى شيء خارج حياتهم فيقولون قد "عُمل لهما عمل"! عوضـــاً عـــن الـــتفكير في الحل الحقيقي المبني على وصف المشكلة والاعتـــراف بها ومن ثم العمل على حلّها من خلال نمط جديد من الـــتعامل، والأخـــلاق، أو - في بعـــض الحـــالات - الرجوع إلى متخصصين نفسيين.

وكذلك الفتاة التي لم تتزوج بعد، تتصور أن عدم زواجها ناشئ مـــن أن أحـــدهم قد عمل لها "عملاً" لكي لا يأتيها الزوج! بينما مـــشكلتها قـــد تكون جزءاً من مشكلة العنوسة المتزايدة في مجتمعنا والتي لها أسبابها الموضوعية.

وبذلك يدخل الإنسان في سلسلة من العُقد النفسية باعتقاده أن عنده "مس أو جن".

وبالـــتالي يـــسعى لعلاج المشكلة في مسار خاطئ. فليس من الـــصواب أن يُقال عن كل إنسان أصابته بعض القضايا النفسية أو الحالات أنه "ممسوس أو مسحور"!

وما أكثر مظاهر الاستخفاف بالعقول في مجتمعاتنا، لدرجة أن بعـــض البرامج التلفزيونية تستقبل الاتصالات وتساؤلات المشاهدين مـــثل: (اقرأ لي كفي.. أنتم عندكم غيمة فلكية، عواصف فلكية)!! ومؤخـــراً قـــنوات فضائية لـــ (القراءة) على المسحور أو الملبوس!! وأخـــيراً قـــنوات فضائية متخصصة في هذه صناعة الوهم وتكريسه وادعاء علاجه.

هـــذه الظواهـــر في الواقـــع استجابة خاطئة لأمور لا أساس لأكثـــرها. يقـــول القرآن الكريم عن قوم فرعون: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُـــوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾. والإسلام لم يأت إلا من أجل إعلاء شأن العقل والقضاء على مثل هذه النماذج الخرافية.

ما هي أسباب انتشار هذه الأفكار الخرافية؟

في الـــبداية لا بـــد أن نلاحظ أن انتشار الخرافات والأوهام لا يعتـــرف كثيراً بالمستوى العلمي، فلطالما رأينا أشخاصاً على مستوى كـــبير من التخصص الأكاديمي ومع ذلك يكونون من المنخرطين في مسار الخرافة العقلية!

ولكنـــنا نلاحـــظ أيضاً أن انتشار تلك الأفكار يكون أكثر في صفوف الفئات ذات المستوى العقلي البسيط، ويزداد بصورة أوضح في صـــفوف النساء في مجتمعاتنا المسلمة - وإن كانت توجد في غير مجتمعات المسلمين أيضاً لكن حديثنا موجه إلى هذه الفئة - فبحسب المشاهدات والمتابعات نحن نجد أن الفئة التي تتعاطى معها بنحو أكبر هـــي فئة النساء، ولعل هذا راجع إلى أن التخلف الذي سيطر على

أجيال أمتنا الإسلامية كان له آثار سيئة متعددة بالنسبة للجميع لكن أثــــره بالنسبة للنساء في حجبهن عن العلم والمعرفة، وإعاقة انطلاقهن في عالم الحياة المعاصرة كان أكثر من مثيله في صفوف الرجال، وليس أدل علــــى ذلك من أننا نجد أن التعليم في عامة البلاد المسلمة بدأ في صـــفوف النساء بعد فترات طويلة – نسبياً – من بدايته في صفوف الـــرجال. وتهيأت الظروف للإطلاع على الثقافة في صفوف الرجال بـــنحو أكثـــر مما هو في صفوف النساء، وكان من الطبيعي – لهذا السبب – أن تكون نسبة الأمية هنا أكثر مما هي عليه هناك. مع أننا لا نـــربط بين التصديق بالخرافات والأوهام وبين التعلم، إذ قد يوجد مـــن المـــتعلمين مـــن يؤمن بهذه الخرافات كما أشارت إليه دراسة مذكورة آنفاً.

كذلك فإنه لما كان الجانب العاطفي في جنس النساء يغلب على الجانب العقلي – ليس في كل النساء بالضرورة – ولأنهن أيضاً أسرع إلى حالة الخوف، فهن يتقبلن تلك الأمور باعتبارها صحيحة وحقيقية ولها آثار وعواقب..

لكن بنحو العموم يمكن الإشارة إلى بعض الأسباب:

1. عدم تحكيم العقل:

هـــذا العقل الذي خلقه الله في الإنسان وجُعل الإنسان به أسمى المخلـــوقات، وبدونه يكون أدنى من الحيوان، إذ إن قيمة الإنسان في عقلـــه... وذلك لقدرته على الموازنة والتقييم، وقدرته على اكتشاف الحق من الباطل.

عـــندما تقـــرأ في تلك الأوراق مثلاً "عندما تقوم بتوزيع هذه الـــورقة سوف تصبح غنياً"! وتبدأ بالتفكير في ذلك الأمر وتتدبر في

القانـــون الذي وضعه الله سبحانه وتعالى وجعله أساساً للكون وهو اقتران النتائج بالأسباب في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِه وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾، ستفطن إلى أن تلك الشائعة لا أساس لها من الصحة.

ومـــا نـــراه اليوم من الانشغال بما يسمى بـــ (فكّ السِّحْر أو العمـــل) مـــا هو إلا عقدة جديدة تصُدّ الإنسان عن التفكير في حلّ المـــشكلة ضمن الطريق الطبيعي. فهذه القضايا لها مساربها الطبيعية، والمشاكل النفسية تُعدّ كالمشاكل البدنية، فكما أن هناك طبيباً بدنياً، هـــناك أيضاً طبيب نفسي، ولا بد أن يذهب الإنسان للعلاج لو أراد الـــشفاء. فهذا هو الطريق الطبيعي والاعتيادي الذي أُمِرنا بالذهاب إليه.

أنـــت إنسان تستطيع أن تسمو بمستواك العقلي إلى درجة أعلى مـــن الملائكـــة، مـــا هذا الإسفاف والاستخفاف والانحدار؟! وأي استخفاف بقوانين الله في الرزق والسعي هذا؟!

لهـــذا نجـــد أن معظم الفئات التي تصدق تلك الشائعات هي الفئات ذات التعقل الأقل.

2. التلقين:

إن جـــزءاً مهماً من المعلومات التي تؤثر في سلوك الكثيرين من الرجال والنساء هي المعلومات التلقينية التي تسود في العائلة أو المجتمع الـــذي يعـــيش فيه الإنسان. ولهذا نجد أن هناك تفاوتاً في المعلومات بحسب اختلاف المجتمعات والأسر.

ومن الملاحظ أن قسماً كبيراً من الناس لما لم يجدوا أسباباً ظاهرة لكـــثير من القضايا - كما سيأتي الحديث عنه - فقد افترضوا أسباباً

مجهولة (غائبة كالجن، والأرواح، والسحر،.. إلخ) وأعانهم على هذا التفسير الخاطئ من كان يريد الاستفادة من (علاجها) كمن يمتهن الشعوذة والسحر أو حتى قراء الرقية، وتكرست هذه الأخطاء وتحولت إلى قواعد في المجتمع فإذا لم تحمل المرأة مثلاً قالوا لها عليك أن تضعي شيئاً من الرز والزبد والسكر على باب البيت (عدرة) كما يسمونها، لكي يأكلها الجن أو ينشغل بها عن منع المرأة المسكينة عن الحمل!

ثم وُرثت هذه (القواعد - والعادات) عبر التلقين للأطفال والنساء، وكرسها (خوف) البعض من هؤلاء من حدوث ما لا ينبغي! وخصوصاً أن ممارستها لا تضر أحداً فيما يرون فتحولت إلى ممارسة اجتماعية في هذه الطبقات.

ولأنها أمر تلقيني، فهي غالباً ما لا تخضع للمستوى العلمي، فقد تجد امرأة جامعية، ومع ذلك هي في زواجها تتعامل بهذه الصورة.. فلا بد لزواجها أن تقرص ركبة العروس الفعلية وهي تعتقد أن ذلك سيحقق لها الزواج مع أنه لا ارتباط أصلاً بين الأمرين..

3. استنفاذ الأسباب الظاهرية:

في حياة الإنسان يجد أمامه نتائج معينة ثم يفتش عن أسبابها الظاهرية، فلا يجد لها سبباً ظاهراً.. امرأة تتمنى الزواج، وهي في سن مناسبة وربما تكون جميلة أيضاً، بل وقد تكون عاملة، ومن أسرة جيدة.. فلماذا تأخر زواجها؟ لا سبب ظاهر مفهوم عندها!

وزوجان كانا منسجمين وسعيدين فما الذي تغير وأصبح الزوج لا يحب زوجته، أو الزوجة لا تطيقه؟ مع أنه لا شيء - بحسب الظاهر - قد تغير فيهما؟ لا يوجد عند الزوجين سبب ظاهر.

ومثلهما من تأخر الحمل عندها، فلا تجد سبباً ظاهرياً، خصوصاً مــع عـــدم الرجوع إلى الطبيب المتخصص في هذا المجال، فتفكر أن هناك سبباً غيبياً غير معروف هو الذي أنتج هذه النتيجة.

إن الخطـــأ يكمـــن في أن مثل هؤلاء لم يراجعوا المتخصصين للبحث عن الأسباب والعلاج، ربما لأجل أن لا يشعروا ولا يُشعروا الآخرين بأهم مرضى.. ولا سيما لو ارتبط الأمر بقضية نفسية حيث تقتـــرن عـــند الكثير بفكرة الجنون، فهم يهربون من هذا إلى ما هو أسهل، وهو اللجوء إلى تلك الخرافات والأوهام.

"أن الخوف من وهم المرض النفسي من الأسباب المهمة، حيث إن كـــثيراً مـــن الناس يلجأ للدجالين خوفاً من أن يوهم هو أو أحد أبـــنائه بأنه مجنون، وهذا يؤثر على مستقبله من ناحية الزواج والعمل والحياة الاجتماعية، فمن السهل القول إنه تلبس فلان أو فلانة جني، ومن الصعب القول إنه مريض نفسي، فالجن قوة خارقة تستطيع أن تفعل ما تريد أما المرض النفسي فهو الجنون"[1].

4. إحالة على المجهول وترك الأسباب القريبة:

يـــوجد في الإنـــسان غريزة الدفاع عن الذات، ولهذه الغريزة تمظهرات متعددة، الكثير منها مفيد، حيث إنه بهذه الغريزة يكتشف طرق بقائه على قيد الحياة، ولها أيضاً بعض التمظهرات التي – بسوء التوجـــيه لها – تنتهي إلى إنكار مسؤولية الإنسان نفسه في ما يحصل لـــه. فبيـــنما يوجه الدين الإنسان إلى أن يتوجه إلى نفسه فيصلحها وذلك أن (ميدانكم الأول أنفسكم).

---

(1) سمية درويش: إيلاف 12 أكتوبر 2005 www.elaph.com.

في المقابل تساهم التربية الخاطئة في إقناع الشخص بأن ما يحصل عليه من نجاح هو بفعل نفسه ولكن ما يحصل له من إخفاقات ومشاكل وأمراض فليس إلا لأن (الغير) قد فعلوا له ذلك. فيبدأ بإلقاء المسؤولية على الأقربين إليه، ثم المخالفين الظاهريين، فإن لم يجد أحال الأمر على مجهول، فالجن هو الذي يعكر حياته، والأعداء السريون هم الذين (يعملون) له الأعمال ويجهزون له السحر.

إن الذي لا ينجز بشكل جيد فلا يترقى في عمله، يعتقد أن رئيسه ضده في البداية، ثم إذا لم يجد ذلك معقولاً، ألقى باللائمة على (حظه) الذي هو شيء مجهول، بعيداً عن تفكيره في ضعف إنجازه.. هذا يمكن علاجه وأما (الحظ) السيئ في نظره فلا علاج له.. أو يلقيه على أي شيء آخر من (كتابة) الآخرين له، أو سحرهم إياه.. أو غير ذلك.

5. مجتمع القمار والحلول السهلة:

بينما وضع الله سبحانه في الكون سنناً وربط النتائج بمقدماها المعقولة، فربط الرزق بالسعي ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ والإنتاج بالكسب والعمل ﴿... **لَهَا مَا كَسَبَتْ**...﴾ وأن الإنسان يرى في دنياه وآخرته ما عمله ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾، وأمر للعلاج بمراجعة الطبيب، وللنجاح بتعاطي أسبابه، وأن الأمر ليس بالأماني ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**...﴾.

في مقابل تسود في بعض المجتمعات فكرة المقامرة، ليس فقط على المستوى المالي، الذي حرّمه الدين وهى عنه، وإنما المقامرة في النظر إلى الحياة، فبعض المجتمعات تريد الوصول إلى أفضل النتائج

بأسهل الطرق في زعمها.. فالنصر تريده بالدعاء لا بالجهاد، والتقدم تريده بالغيب لا بالشهود والسعي، والرزق بالحظ أو الأحراز والأحجبة.. وهكذا.

ومن ذلك أن بعض أفراد هذه المجتمعات تريد النتائج من غير عناء مقدماها، فتخسر أموالها عند عدد من مرتزقة هذه الحالات، الذين يستغلون في هؤلاء (اللامعقول) ويسلبوهم مالهم في مقابل إعطاء الوهم.

6. الخلط بين الإيمان بالغيب وبين التعلق بالوهم والخرافات:

يأتي بعض هؤلاء – بسذاجة – فيقول: إننا نؤمن بما جاء في القرآن من السحر والجن والحسد.. إلخ. ولذلك نعتقد بهذه الأمور ونمارسها..

لقد غفل هؤلاء عن أن القرآن عندما تحدث عن أصل تلك القضايا باعتبارها هامشاً محدوداً جداً في الحياة (يرشدك إليه قلة الحديث عن آياها، وعدم وجود تكاليف شرعية باتجاهها إلا نادراً)، لم يتحدث عن أن هذا الموجود عندنا من (تغوّل) هذه الممارسات، وكذب أكثرها، ولم يتعرض إلى الواقع الخارجي، وأنه حاصل أو لا.. لقد تحدث عن الجن باعتبارهم أمماً كانت محلاً للتكليف الشرعي وأرسل لهم الرسل لكي يصل لهم الوحي الإلهي بطريقتهم.

ولم يتعرض القرآن الكريم إلى أمور التلبس بالجان، أو استشهادهم في قضايا ودعاوى، أو ما شابه.

إننا نؤمن بالغيب وهذه من صفات المؤمنين أهم (الذين يؤمنون بالغيب) لكن هل من شروطهم وصفاهم الإيمان بأن فلاناً ملبوس أو ممسوس بالجن، أو أن فلانة مسحورة؟

7. عدم الرجوع إلى أهل الاختصاص:

إن لكل مشكلة جهة اختصاص خبيرة بأسبابها ونتائجها، ينبغي أن يتعود الناس على الرجوع إليها، ففي المسائل الطبية النفسية، هناك متخصصون.. إذ إن العلم كما تقدم في المجالات المختلفة فلا شك أنه قد تقدم بنفس النسبة في معرفة الأمراض النفسية، واستطاع في كثير من الحالات رصد علاجاتها.

وفي المشاكل الاجتماعية، هناك مؤسسات ومستشارون وعلماء في هـــذا المجال، يدرسون السنوات حتى يصبح الواحد منهم ذا قدرة عالية على المعالجة.. فينبغي لمن يعاني مشكلة ترتبط بهذا الجانب سواء في علاقاته الزوجية أو الاجتماعية المختلفة أن يرجع إلى هؤلاء.

وفي المـــسائل التي ترتبط بالجانب الديني ينبغي إرجاع الأمر إلى الجهـــة الدينية المتخصصة[1] وإلا فإن عدم ذلك قد يُوقع الإنسان في المحذور الشرعي[2]. والتفريق بين الأمر الغيبـــي الثابت – والذي هو جزء من الاعتقاد الديني – وبين الخرافة والأسطورة، يحتاج إلى جهة متخصصة، عارفة بحدود كل منهما... وهي الجهة الدينية.

لـــذا ينبغـــي أن يُرجع في هذه الأمور إلى الجهات الدينية من المـــراجع الكرام والعلماء الإعلام. قال تعالى: **﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْـــنِ أَوِ الْخَـــوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي**

(1) مـــع أننا نلاحظ أن بعض الفئات الدينية هي جزء من المشكلة، ويجدون فيها سوقاً رائجة لعرض بضاعتهم الباطلة فلا بد من التدقيق في هذا الجانب، بحيث يتم الذهاب إلى غير تلك الفئة المتورطة في هذه التجارة الفاسدة.

(2) وهـــو حـــرمة الذهاب إلى الساحر والكاهن، كما روي عن المعصومين: (من ذهب إلى كاهن أو ساحر فقد كفر بما أنـــزل على محمد).

الأَمْـــرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

آثار انتشار الخرافات ونتائجها السلبية:

1. البعد عن حالة الإنتاج والتفكير والفاعلية، وإهمال تطوير الذات والمجتمع:

فمـــا الداعـــي إلى الإنـــتاج والفاعلية إذا كان يمكن أن يحصل الإنسان على النتائج المترقبة من خلال الدعاء، والأحجبة والأحراز، ولمـــاذا يسعى في حل مشاكله بالطرق الاعتيادية، ما دام يمكن ذلك من خلال تلك الطرق الوهمية..

لمـــاذا يسعى للطبيب مع أنه يمكن أن يشفى بماء (مقري) عليه؟ ولمـــاذا تفكر في حل مشاكلها مع زوجها إذا كان المعالج(!) سوف يفـــك لها العقدة ويزيل (العمل)؟ وما الذي يدعو الرجل إلى معالجة نفسه من أعراض الضعف الجنسي مثلاً ما دام الأمر يرتبط بغيره؟

2. تشويه صورة الإيمان بالغيب:

إن هذه الظواهر تعكس صورة سلبية وخاطئة عن سائر القضايا الغيبـــية الصحيحة مما تؤدي إلى الخلط بين الخرافة والغيب، وهذا ما يدفـــع بالإنسان المسلم إلى عدم الإيمان بالغيب بصورته الصحيحة. ولذلك نجد الكثير من الدعوات – من كُتَّاب وباحثين غير متدينين – ضد الإيمان بالغيب ويفسرونه بأنه خرافة وأنه سبب في تغييب العقل (وذلك لأنهم لا يفرقون بين الخرافة والغيب الحقيقي).

---

(1) النساء: 83.

عـــندما تسود في المجتمع مثل هذه الظواهر، فإن القضايا الغيبية الثابتة والصحيحة والتي نتعبد بها، تصبح مُشوَّهة، ويصبح الإيمان بها في محل الشك.

3. سوء استغلال بعض الأفراد للضحايا:

إن مـــن نـــتائج شيوع هذه الأمور وتصديقها، أن يجد بعض الخاطئين فيها طريقاً للاستغلال المالي أو الجنسي.. وغير ذلك.

وتتـــناقل الأخـــبار في أكثـــر مـــن بلد ومكان عن أنواع من الاستغلال الجنسي لمن يزعمون أن بإمكانهم القيام بما يُسمى بـــ (فك الـــسِّحر أو تخريب العمل)، ويُؤسَف للبعض من الفتيات اللاتي يقعن في هـــذه المصائد، وهذا مما يُعرفنا حِكمة الإسلام الذي منع الاختلاء والخلوة.

لقد تحدثت أكثر من وسيلة إعلامية عن تجارب مرة وقعت فيها نـــساء، مـــثلما نقلت صحيفة الرأي العام الكويتية قصة عن شخص يحتـــرف الرقية الشرعية للسيدات فقط، وتتحول الجلسات معه إلى "حلقات غزل" مطولة.. في إحدى اتصالاته الهاتفية مع زبونة له قال لهـــا: "أنـــا ما ألوم الجني المتربع في أحشائك، يا مسحورة يا قمر"، وكانت هذه السيدة لجأت إليه ليقرأ عليها بعد شعورها بضيق وإعياء وخمـــول، فاســـتغل الموقف وبدأ "حلقات" الغزل المصحوبة ببعض "التحسيس". ثم نقلت تفاصيل تلك القصة..

وهكـــذا نشرت قناة العربية في موقعها الإلكتروني حادثة امرأة كانـــت لا تنجب وذهبت هذه المرأة إلى رجل في دولة عربية عرف بهذه الأمور من السحر والشعوذة لكي يعطيها الإنجاب!! و لم تستيقظ إلا بعد مدة عندما أرسل إليها بأن عندي صور لك فاضحة.. باعتبار

أنها خــدرت عندما ذهبت إليه.. هل ترسلين لي مبلغاً من المال أو أنشرها على الإنترنت؟ وظل يبتزها هكذا إلى أن وصل إلى مئة ألف درهــم وبعــدها ذهبت إلى نفس هذه المنطقة وقدمت شكوى عند الشرطة واعتقلوه.

عــلاج مشاكل الإنجاب إما أن يكون له طريق طبي أو طريق غيبــي.. إن كان هناك مجال عن طريق الطب وإلا فلا بد أن يتوجه الإنــسان إلى الله ســبحانه وتعالى ويخلص في الدعاء له لكن البعض يتمسك بالوهم في كثير من الأحيان..

إذا وجد عند الناس هذه التوجهات الخرافية تنشأ وتتكاثر طبقة طفيلــية تعــيش على الابتزاز المالي وفي بعض الأحيان على الابتزاز الجنسي[1].

4. تشكل طبقة من الأفراد الطفيليين في المجتمع والذين يبيعون الوهم للناس بالأموال!!

فتــرى الــواحد مــنهم يبيع كلمات قد كتبها ولا يعرف هو معــناها، وليس لها مصدر... يبيعها بمئات الريالات أو آلافها، وهذه عملية سرقة للأموال، وبيع للوهم، واستغفال للناس.

وفي العلاج:

نحن بحاجة إلى أن ننظر إلى هذه الأمور والقضايا بنظرة إسلامية متعقلة حتى يتم القضاء عليها. فالمجتمع إذا صار واعياً وذا قدرة عقلية

---

(1) لا تخلــو الــصحف العربية أسبوعياً من الحديث عن القبض على مشعوذين، اســتغلوا ضحاياها جنسياً أو مالياً.. وبالرغم من أن بعض القصص فيها شيء من التضخيم الإعلامي، لكن بمعادلته بـــ (ما خفي و لم يكتشف وهو الأعظم) يكون الأمر متعادلاً.

وأصـــبح ذا سياج، ستكون لديه الحصانة ضد هذه الأمور، حتى لو أراد شخص أن يستغل الناس شباباً أو شابات، مالاً أو جنساً أو غير ذلك.

كمـــا ينبغي محاصرة من يحاول القيام بهذه الأعمال سعياً وراء حُطام دنيوي أو شهوة عاجلة.

والإســـلام يعلمـــنا كيف نحكم العقل، كما في المأثور: حدث العاقل بما لا يكون فإن صدق فلا عقل له.

قضايا ثقافية

في منهج أهل البيت

ماذا تعني الثقافة؟

لو أردنا أن نبحث عن تعريف تام لكلمة الثقافة، لأعيانا ذلك، فـــإن تفسيرها من خلال الجذر اللغوي لـــ (ثقف) وإن حاوله بعض الكـــتاب، إلا أنه يحتاج إلى تكلف شديد، لكي يعطي المعنى المتداول اليوم لهذا المصطلح(1).

لكنـــنا ســـوف نستعين ببعض التعريفات التي حاولت أن تحدد المـــصطلح من خلال استقراء الواقع، مثلما صنع معدو تقرير التنمية

---

(1) في لـــسان العـــرب: لسان العرب - ابن منظور، ج 9، ص 19: ثقف: ثقف الـــشيء ثقفاً وثقافاً وثقوفة: حذقه. ورجل ثقف (* قوله رجل ثقف كضخم كما في الصحاح، وضبط في القاموس بالكسر كحبر). وثقف وثقف: حاذق فهـــم، وأتبعوه فقالوا: ثقف لقف. وقال أبو زياد: رجل ثقف لقف رام راو. اللحياني: رجل ثقف لقف وثقف لقف وثقيف لقيف بين الثقافة واللقافة. ابن الـــسكيت: رجل ثقف لقف إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به. ويقال: ثقف الشيء وهو سرعة التعلم. ابن دريد: ثقفت الشيء حذقته، وثقفته إذا ظفرت بـــه. قال الله تعالى: ﴿**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ**...﴾. وثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقاً خفيفاً مثل ضَخم، فهو ضَخم، ومنه المثاقفة. وثقف أيضاً ثقفاً مثل تعـــب تعـــباً أي صار حاذقاً فطناً، فهو ثقف وثقف مثل حذر وحذر وندس وندس، ففي حديث الهجرة: وهو غلام لقن ثقف أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنـــه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. وفي حديث أم حكيم بنت عبد المطلب: إني حصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم.

الإنـــسانية، حيث عرفوا الثقافة بأنها: مصطلح يشير إلى كل ما أنتجه البـــشر مـــن أفكـــار وتصورات وعادات ونظم سياسية واجتماعية ومـــداولات اقتصادية، وفعاليات أدبية وتقنية عبر التاريخ وهو يكاد يتماهى مع مصطلح الحضارة.

والتراث الفكري مكون أساسي من مكونات هذه الثقافة، كما أن اللغـــة هـــي الحامل الأداتي لها والدين هو المنظومة الاعتقادية التي توجه حياة تلك الثقافة[1].

بيـــنما الـــثقافة عـــند المرحوم مالك بن نبي هي: مجموعة من الـــصفات الخلقـــية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتـــصبح لا شـــعورياً العلاقـــة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه.

فهي أولاً (محيط) معين يتحرك في حدوده الإنسان فيغذي إلهامه ويكيف مدى صلاحيته للتأثير عن طريق التبادل. والثقافة (جو) من الألوان والأنغام، والعادات والتقاليد والأشكال والأوزان والحركات الـــتي تطبع على حياة الإنسان، اتجاهاً وأسلوباً خاصاً يقوي تصوره ويلـــهم عبقـــريته ويغـــذي طاقاته الخلاقة، إنها الرباط العضوي بين الإنسان والإطار الذي يحوطه[2].

وأيـــاً كـــان فحـــيث لا يترتب أثر مهم على تعريف المصطلح، خصوصاً فيما يرتبط بمجال بحثنا، والذي يحاول أن يقرأ بعض العناوين الثقافية القائمة، من خلال توجيهات القرآن وأهل البيت عليهم السلام، فإننا نعرض عن الإسهاب في التعريف، لصالح ما بعده.

---

(1) تقرير التنمية الإنسانية 2003.

(2) مالك بن نبي في: مشكلة الثقافة، ص 74 و102.

التفاعل بين الثقافة والسلوك:

نمط حركة الإنسان في الحياة رهين عوامل متعددة أهمها: ثقافته الـتي يحملها، عن نفسه وعن الكون والحياة ورسالته فيهما.. فهذه الـثقافة (أو زاوية النظر) موجودة لدى كل أحد مهما كان مستواه المعـرفي والعلمـي، وهي التي تحدد طريقة حياته، من الجد والعبث والالتزام ومقابله.

ولعلـنا نجد أنه لهذا السبب كان موقع (العقيدة) والأصول في الديانات مقدماً على موقع الشريعة والتفاصيل، وذلك لأنه من خلال العقـيدة تـتحدد الخارطة العامة لحياة الإنسان في مبدئها ومنتهاها، وتبين له نسبة علاقاته مع الخالق والخلق.

فلـيس من المعقول أن يطلب ممن يعتقد أنه ﴿... **أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَـثًا**...﴾[1] أن يكـون جاداً في حياته وحريصاً على عدم إضاعة الفـرص! وهذا يعرب لنا عن تأثر تفاصيل الحياة، بأصول الاعتقاد.. ولا ندعـي الحتمية في ذلك، ولكن القاعدة هي هذه، بل يؤكد أمير المؤمـنين علـى هذه العلاقة بقوله لكميل: (ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة)[2].

ولو أردنا تتبع العلاقة الأكيدة الموجودة بين الاعتقاد (الأصول، والنظرة الكونية) وبين التفاصيل الحياتية، والأحكام الشرعية لخرجنا بكـثير من النتائج، وهذا يفسر لنا وجود العدد الكبير من الروايات التي تعلي من شأن المعرفة، وتقدمها على سائر المهمات، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله

---

(1) المؤمنون: 115.

(2) مستدرك الوسائل 268/17.

فقـــال: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة.. وهو يشير إلى تقدم المعرفة على الصلاة في الفضيلة.

وفي حديث آخر قال: بعضكم أكثر صلاة من بعض، وبعضكم أكثـــر حجـــاً من بعض، وبعضكم أكثر صدقة من بعض وبعضكم أكثر صياماً من بعض، وأفضلكم أفضل معرفة[1].

وفـــسر الإمام الباقر عليه السلام الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كـــثيراً، بأنهـــا المعرفة، بينما جعل أمير المؤمنين علي عليه السلام أن حفظ الدين هو من ثمرة المعرفة.

لقد رأينا القرآن الكريم في جملة من آياته المباركات يركز على الأخطـــاء المعرفية والثقافية التي تتصل بنظرية الحياة، وهدفية الخلق، أكثر من تركيزه على تفاصيل الأخطاء الحياتية والسلوكية وإن كانت هذه أيضاً محط توجيهاته..

فهـــو يـــوبخ على الاعتقاد بنظرية عدمية عابثة لأنها تقود إلى العـــبث التفـــصيلي في الحياة، والفساد الأخلاقي **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾**[2].

وهكذا تلك الرؤية العنصرية التي تنتهي إلى أن يقفل الإنسان على عقله بالمغاليق في قولهم: **﴿... لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[3].

---

(1) ميزان الحكمة 1780/3.
(2) الجاثية: 24.
(3) البقرة: 111.

وإن الاعتداد بالذات والنظر المتضخم والمتورم لها وعدم معرفة حـــدودها، والذي تعبر عنه الروايات بلزوم معرفة النفس وأنه كفى بالمـــرء جهلاً أن لا يعرف قدر نفسه، وما هي نسبته إلى هذا الكون والحـــياة، هو الذي يقود إلى الأخطاء التفصيلية في الحياة، حين يقول الإنسان بكل صفاقة ﴿... **مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً**...﴾[1].

أو حـــين يتباهى بما خوله الله ناسياً أن ذلك لا يؤثر في معادلة الـــثواب والعقـــاب ﴿**وَقَالُـــوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾[2].

بل إن الفكرة الخاطئة، لتتحكم في كل حياة الإنسان ومصيره، حـــتى يصبح ذلك المصير لعبة بيد الظالمين والطغاة، بينما (يقتنع) هذا الإنـــسان بمـــا لديه، الأمر الذي ترفضه التعاليم السماوية ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَـــوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـــةُ ظَالِمِـــي أَنْفُـــسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَـــضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[3].

وهكذا تطول القائمة لو أردنا تتبع باقي الآيات المباركات..

وإذا كان لديك الوجدان والعيان فما حاجتك للسمع بالآذان؟ فلـــو نظـــرت إلى حـــال مجتمعنا العربي والإسلامي لوجدت أن من العـــوامل المهمة في تخلفه العامل الثقافي، ووجود الأفكار الخاطئة التي تعيق حركته.

---

(1) فصلت: 15.

(2) سبأ: 35.

(3) النساء: 97.

فــإن الفهم الخاطئ لمفهوم التوكل على الله يجعله يتحول إلى عــدم الأخذ بالأسباب وإلى الاعتماد على الفوضى، وترك التقدير للقــوانين مــع أن خلــق الله للكون وهو القادر على كل شيء كــان معــتمداً على التقدير والقانون **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنــزِلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾**[1] و**﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾**[2].

وهكذا فإن القناعة بما قسم الله، وهو مفهوم من أعظم المفاهيم الأخلاقــية، حين يفهم بنحو خاطئ ينتهي إلى قتل الطموح الفردي، والاجتماعي، ويصنع التخلف في الأمة.

وتعريف الدين بدل كونه دعوة للحياة والانطلاق والتقدم (إذا دعــاكم لمــا يحييكم) على أنه أمر عبادي منفصل عن عالم السياسة والتجارة والاجتماع، قد يحوله إلى مخدر يستطيع الظالمون من خلاله أن يسيطروا على الشعوب.

بــل ربمــا تحول بفعل الفهم الخاطئ إلى مصنع للموت والفناء بعدما كان باعثاً للحياة.

ممــا ســبق يتبين أهمية التصحيح والمراجعة للفكر الذي يحمله المسلم، وتبيّن الرشد من الغي ولكن:

لماذا القرآن وأهل البيت؟

لا بــد في عالم الأفكار من وجود مرجعية، تقاس الأفكار من خلالهــا، ذلك أننا نحاول الحديث عن جملة من القضايا ضمن الدائرة الإســلامية، ولا يكفــي - كما نعتقد - ما هو سائد من انطلاق

---

(1) الحجر: 21.

(2) القمر: 49.

الأفكار، بنحو يشكل كل واحد مرجعيته الفكرية من خلال نشاطه الذهني وآرائه الخاصة.

إن مـــا تقدم بالرغم من أنه يعتبر سباحة عكس التيار الثقافي، الـــذي يـــسود الآن في الأمـــة ويرى فيه قسم من المثقفين والكتاب أنفـــسهم غير مقيدين بمرجعية معينة، بل ربما حاولوا (ليّ) عنق تلك المـــرجعيات لتطاوع أفكارهم وتصوراتهم (فالمعروف فيهم ما عرفوا، والمنكـــر عـــندهم مـــا أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قـــد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات، وأسباب محكمات)[1]. إلا أنه لا بد منه.

إنـــنا نعـــتقد كمـــا أن الانغلاق والجمود الفكري ضار بالأمة وبأجيالها، فإن الانطلاق من غير مرفأ، والسباحة في بحرٍ من غير عودة إلى ســـاحل، ينتهي إلى الغرق، وفي هذه الأمور فإنه ﴿... **لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ...**﴾.

وأهل البيت عليهم السلام، هم المرجعية الدينية التي أعلن عنها رســـول الله عِدلاً للقرآن ورديفاً له، بمقتضى حديث الثقلين المشهور بين المسلمين.

إن هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث لم يعط حقه من التأمل، بالرغم من كثرة ما قيل فيه، فإن كثيراً مما قيل فيه، إنما كان في إطار الجدل المذهبي والانتصار لهذا الطرف على ذاك، أو في إطار استقصاء كلمـــات المدح والثناء.. بينما يعتقد أن الغاية الكبرى من مثل هذا الحـــديث هو صنع مرجعية فكرية يُنطلق منها، ويرجع إليها. وهذا

(1) أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة - خطبة 88.

صريح أحاديث كثيرة كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام: (انظروا أهل بـــيت نبيكم، فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا)[1].

وأما بالنسبة للقرآن فهو – إضافة إلى كونه – ﴿... **يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**...﴾[2] سواء في الحياة الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية.. فإنه ميزان يكتشف من خلاله الصواب والخطأ، ومرفأ يعتصم به من الغـــرق كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل"[3] مصدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدليل يـــدل علـــى خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنـــيق وباطـــنه عميق، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة..)[4].

نقاط في منهج التعامل مع النصوص

من الواضح أن جيلاً كبيراً من أبناء الأمة الإسلامية اليوم يرجع إلى الكـــتب المـــصدرية التي تحتوي على (السنَّة القولية أو العملية)، ويـــستوي في ذلك الشيعة والسنَّة. بل ربما رأى الكثير من هؤلاء أن الـــرجوع إلى تلـــك الكتب أسلم وأفضل من الاطلاع على كتب

---

(1) نهج البلاغة – خطبة 97.

(2) الإسراء: 9.

(3) ساع ومخبر.

(4) الكافي – الشيخ الكليني، ج 2، ص 599.

المعاصرين، وذلك لحالة القداسة التي تحاط بها تلك الكتب المصدرية، دون هذه الحديثة.. ذلك أنه قد ترسخ في أذهان الكثير من أبناء السنَّة أن صحيح البخاري - مثلاً - هو أصح كتاب بعد كتاب الله المجيد[1]، وربما نُسجت حوله بعض الكرامات والآثار مثل أن قوماً كانوا في البحر وجرين بهم بريح طيبة حتى إذا جاءتها بريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان آنئذ وضعوا الصحيح على المركب فهدأ الموج وسار المركب سيراً وئيداً ووصلوا سالمين.. هذا نوع من إضفاء القداسة المبالغ فيها على كتاب هو - وإن جمع مؤلفه أحاديث يعتبرها صحيحة عن النبي ولكنه - جهد بشري وعمل إنساني يتعرض للنقص والعجز والخطأ والخطل، لكن هناك محاولة لإضفاء قداسة إضافية على هذا الكتاب الحديثي! وهكذا الحال بالنسبة إلى كتاب الكافي للكليني الذي هو أحد بل أهم الكتب الأربعة التي عليها مدار الاستنباط والاجتهاد عند شيعة أهل البيت عليهم السلام، ونحن نحفظ للرجل مكانه العلمي وللكتاب دوره لكن قد تجد مبالغة في إضفاء القداسة من غير ثبوت شرعي مثلاً: دعوى أن الإمام الحجة (عجل الله فرجه الشريف) أنه قد رآه وقال الكافي كافٍ لشيعتنا[2]! وما دام الأمر كذلك فلماذا يسعى شباب هذه الأمة إلى مطالعة كتب أخرى، والنظر فيها مع وجود كتب من هذا النوع لها هذه الفضائل؟ ويسري ما تقدم على باقي الكتب التي تتمتع بميزة (القِدم) و(التراثية).

---

(1) وقد ناقش المحققون في هذه الكلمة وانتقدوها.

(2) قال المحدث النوري في خاتمة مستدرك الوسائل 470/3: إن الخبر الشائع: من أن كتاب الكليني قد عرض على الإمام المهدي محمد بن الحسن، فقال: هذا كاف لشيعتنا.. لا أصل له ولا أثر له في مؤلفات أصحابنا بل صرح بعدمه المحدث الاسترابادي.

ولا يخفى أن جانباً من سبب ذلك يعود إلى الصحوة الإسلامية المتأخـــرة، وســـعي الكـــثير مـــن أبناء الأمة إلى أن يأخذوا (العلم) و(المعـــرفة) مـــن مـــصادرها (الأصلية) و(الموثوقة). رافضين وجود وسائط بينهم وبين تلك الكتب!

وبالرغم من وجود فوائد في (عودة الروح) هذه، إلا أننا نحتاج بنحو أكبر إلى (عودة الوعي). فإن هناك عدداً من المشاكل لا بد من ملاحظتها في هذا التوجه.

فمن تلك المشاكل:

الأصول الروائية مواد خام وليست ثقافة جاهزة:

* أن هذه الكتب ليست كتب أفكار نهائية، وإنما هي مواد خام لإنتاج الأفكار من خلال عمل فكري متخصص يخضع لمنهج، ينظر إلى أطراف النصوص المختلفة ويجمع بينها بنحو صحيح.. خصوصاً مع عدم فهرسة الكثير منها فهرسة موضوعية، تشتمل على كل ما له دخل في نتيجة الفكرة.

والفـــرق كبير بين كتاب الفكرة الجاهزة، وبين الكتب الروائية الـــتي تحتاج إلى جهد في الجمع والتركيب والتقييد وحل مشكلات المعارضة بين نصوصها.

إن دخـــول القارئ في هذا المخزن من الأحاديث والروايات، يـــشبه دخـــوله في مخزن كبير فيه قطع غيار للسيارات، من مختلف الأنـــواع والأحجام، ويطلب منه تركيب سيارة منها مع عدم وجود خريطة ومنهج يعرفه أماكن تلك القطع، وكيفية تركيبها مع بعضها.

إن إعطـــاء الأولوية لنص دون الآخر، وتقديمه عليه، أو تفسيره بغـــيره، أو تقييده بسائر النصوص عملية مهمة جداً، وعدم القيام بها

قـــد يـــؤدي إلى نتائج مدمرة في عالم الفكر. وها هي فرقة الخوارج تاريخياً، وها هم التكفيريون المعاصرون يتكونون في الأساس من خطأ معرفي، ونظر غير سليم إلى بعض النصوص القرآنية. ولعل هذا يفسر لـــنا قـــول الرسول: "أنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم"، لقد نظـــروا إلى نص (لا حكم إلا لله) وأخطأوا فهمه و لم يستطيعوا أن يميزوا بين الحاكمية الإلهية[1] وبين الحكومة البشرية. لقد طلبوا الحق – بحسب منطلقهم – ولكنهم أخطأوه.

التفريق بين الدين والمعرفة الدينية:

هناك مشكلة أخرى وهي أن القارئ لهذه المصادر، يفهم منها شيئاً معيـــناً، ويتصور أن ذلك الشيء هو الدين، فما دام الحديث عن رسول الله، أو عـــن أمير المؤمنين، وقد قرأه في ذلك المصدر (المعتمد) فإذن هذا هو الدين الحق.. ﴿... **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ**...﴾[2]. وإذا كان هذا هو الحق فإن ما يخالفه هو الباطل، ومن يخالفه هو من أهل الباطل الذين يجب مواجهتهم ومحاربتهم حتى يفيئوا إلى الحق!!

ومن هنا تنشأ أرضية التكفير والعنف.. ولو التفت هذا القارئ للمصادر الأصلية إلى أن هناك فرقاً بين الدين وبين فهمه هو للدين.. وأن الأول مقدس وليس بعده إلا الضلال، بينما الثاني لا قداسة فيه،

---

(1) قـــال عليه السلام: كلمـــة حق يراد بها باطل. نعم إنه لا حكم إلا لله. ولكن هؤلاء يقولـــون لا إمرة إلا لله: وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن. ويستمتع فيها الكافر. ويبلغ الله فيها الأجل. ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو. وتأمن به السبل. ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح به بر ويستراح من فاجر. نهج البلاغة – خطبة 40.

(2) يونس: 32.

بل قد يكون عين الباطل والاشتباه، إذ إن فهم الناظر هذا قد يصيب الواقــع ويطابــق الحق، وقد لا يكون إلا باطلاً وجهلاً مركباً.. لو الــتفت إلى الفــرق بــين الدين وبين فهمه للدين لارتاح وأراح. ولتخلصت الأمة من كثير من مناشئ الصراع والاحتراب فيما بينها.

هذا التفريق والتمييز بين الدين وبين معرفة المتدين بدينه، يصنع أسساً في العلاقة بين الأفراد والجماعات ويمهد لإعذارهم، بحسب ما وصلت إليه عقولهم وأفكارهم من معرفة الدين وفهمه.. ويوضح لماذا يعــتقد كــل فريق أنه على صواب وهو الذي يمثل الحق، لأنه يقرأ القرآن ويجد أن أفكاره مطابقة له، ويحفظ الحديث ويجده تصديقاً لما يــؤمن به، ونفس هذا الأمر يعتقده مخالفه في الطرف الآخر! مع أن الحق واحد لا يتعدد.

يبقــى أن يقــال: ماذا نصنع؟ هل أن كل من يطلع على هذه المصادر لا يستطيع الاستفادة منها لأنها (معرفة) دينية وليست (ديناً)؟ ماذا عن فتاوى العلماء؟ وآراء الفقهاء المستنبطة من تلك المصادر إذا لم تكن ديناً فليست واجبة الإتباع والطاعة؟

والجــواب على ذلك: أنه لا شك في أهمية الاطلاع على تلك المــصادر، ولزوم الاستفادة منها، فما قيل من (السنَّة) إنما هو هداية وإرشــاد للأمة.. وهذا يقتضي أن يتم الاطلاع عليه، والتزود منه.. ولكن الناس في هذا المجال قسمان:

- القسم الأكثر وهو غير المتخصص ولكنه يحمل مستوى ثقافياً يــستطيع من خلاله فهم ما ينقل في تلك النصوص، وهذا القسم إن كــان (قاطعاً، ومتيقناً) بأن ما وصل إليه من المعنى هو المراد من قبل صــاحب النص فلا كلام معه، إذ القطع حجة لا يمكن الردع عنها، ولا المــنع مــنها. ولكن هذا حجة بالنسبة لصاحبه في عمله وحياته

الخاصة دون أن يكون حجة على غيره ممن لم (يتيقن أو يقطع بذلك المعنى) ولا يصح له أن يلزم غيره بما وصل إليه.

وإذا كـــان – كمـــا هو الغالب – قد فهم شيئاً ولكن يحتمل وجود معاني أخر له، أو يحتمل وجود مقيدات ومخصصات فيه، وأنه لم يُحط بها حتى الآن، فلا يستطيع والحال هذه أن يقطع بأن هذا هو المراد من صاحب النص، وبالتالي يبقى فهمه للنص أحد الاحتمالات التي قد تصيب وقد تخطئ!

ولا نريد هنا أن نتمسك بما هو معروف من أن المجتهد إن أخطأ فلـــه أجـــر وإن أصاب فله أجران(1).. كما يصنعه الكثيرون، فإن الحـــديث المذكـــور يتحدث عن الحاكم المجتهد، والحاكم هنا بمعنى القاضـــي لا بـــد أن يكون على مستوى متميز من معرفة بالأحكام الدينـــية (والـــبعض مـــن المذاهب يشترطون فيه مستوى الاجتهاد والتخصص)، المجتهد هنا – ليس كل من بذل جهداً، وإنما هو في قوة مصطلح (الخبير والمتخصص) هذا الشخص إذا بذل جهده واستفرغ كـــل ما لديه من طاقات فكرية في تخصصه ذاك، وأخطأ معه فإن له أجر الاجتهاد، والسعي.

أمـــا أن يتصور كل من نظر إلى تلك النصوص أنه مجتهد وأنه مثاب ومأجور على تقديري الإصابة والخطأ فهو غير صحيح.

– القـــسم الثاني: المتخصص الخبير في كل فن وعلم هو مرجع لمن ليس كذلك، وهذا ما تشير إليه سيرة العقلاء قديماً وحديثاً، على

---

(1) في صـــحيح البخاري، ج 8، ص 157 عن رسول الله ﷺ يقول: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر". وفي غـــيره أيضاً كمسند أحمد بن حنبل، وكتاب الأم للشافعي، واستدل به فقهاء الشيعة في مواضع من كتب الاستدلال الفقهية.

أنهم يرجعون في كل قضية إلى المتخصص فيها ويأخذون بقوله.. وقد جـــاءت الآيات والروايات مؤكدة على هذا المعنى مثل ﴿... **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[1].

ومعـــرفة هذا الشخص المتخصص (والذي يعبر عنه في الألسنة حالـــياً بالمجتهد) في النصوص الشرعية حجة عليه وعلى غيره، وعند التعارض تقدم هذه المعرفة على معرفة الآخرين، تماماً كما هو الحال في ســـائر المجـــالات حـــيث تقـــدم خبرة المتخصص فيها على غير المتخصص.

آثار الانفتاح من غير منهج:

لا نريد هنا أن نوحي إلى القارئ العزيز بأن النصوص الموجودة في المـــصادر هي حكر على فئة من الناس، وأن عليه أن يستمع إليهم فقـــط، وأن يفهمها من خلال فهمهم لها. فهذا خطأ قد وقعت فيه بعض الأوساط الدينية المسيحية، وكانت نتائجه سيئة.

وإنمـــا نريد القول أن معالجة النص واستخراج الأفكار منه، كأي فن آخر يحتاج إلى طريقة ومنهج.. وأهمية هذا تكمن في أن قـــسماً مـــن مـــا يقرأه من النصوص يتحول إلى (لافتات ثقافية) تـــصبغ حياة الإنسان وتحكم سلوكه. ولهذا كان ضرورياً أن يتم الوصول إلى تلك النصوص من خلال منهج سليم. يبدأ بتعقل الخبر والـــنص عقل رعاية[2]، والتأمل فيه وعدم الاكتفاء بمجرد روايته وقراءته.

---

(1) النحل: 43.

(2) في الخـــبر عـــن الإمام علي: (اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية، ولا تعقلوه عقل رواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل).

لنضرب بعض الأمثلة من حضور هذه النصوص في أذهان بعض المسلمين:

أهل العراق أهل غدر ونفاق!

بعـــض الـــناس يعتقدون أن أهل العراق هم أهل غدر وشقاق ونفـــاق لمـــاذا؟ لأنه روي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في زمانه لأهل الكوفة: يا أهل العراق يا أهل الشقاق يا أهل النفاق[1] إلى غير ذلك،

---

(1) الموجود في نهج البلاغة – خطبة 71 عن الإمام علي عليه السلام هو: يا أهل العراق فإنمـــا أنتم كالمرأة الحامل حملت فلما أتمت أملصت ومات قيمها وطال تأيمها وورثها أبعدها) أما والله ما أتيتكم اختياراً ولكن جئت إليكم سوقاً ولقد بلغني أنكم تقولون علي يكذب. قاتلكم الله فعلى من أكذب. وفي نهج البلاغة يوجد تقريع من قبله لأصحابه لكن لا بعنوان أهل العراق أهل الغدر والنفاق..

لكـــن في كلمات الحكام الأمويين تم استعمال هذا الكلام كثيراً، فهذا معاوية يقول للوليد بن جابر الطائي وهو من شيعة الإمام علي عليه السلام في حوار بينهما: وإنك لتهددني يا أخا طي بأوباش العراق أهل النفاق، ومعدن الشقاق! فقال: يـــا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق وحبسوك في المضيق، وذادوك عن سنن الطـــريق، حتى لذت منهم بالمصاحف، ودعوت إليها من صدق بها وكذبت، وآمـــن بمنـــزلها وكفرت، وعرف من تأويلها ما أنكرت. كما في شرح نهج البلاغة 129/16.

ومـــثله كلام عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة فقد صعد المنبر وقال: أتانا خبر من العراق، بلد الغدر والشقاق، فساءنا وسرنا، أتانا أن مصعباً قتل رحمه الله.. شرح النهج 298/3.

وزاد على ذلك بتعبير المراق، ومساوئ الأخلاق، الحجاج بن يوسف الثقفي، حـــين خطب خطبته المعروفة فقال: يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق والنفاق والمراق، ومساوئ الأخلاق، إن أمير المؤمنين نثل كنانته، فعجمها عوداً عوداً، فـــوجدني أمرها عوداً وأصعبها كسراً، فرماكم بي، وإنه قلدني عليكم سوطاً وسيفاً، فسقط السوط وبقي السيف كما في تاريخ اليعقوبي 273/2.

ومثله والي الوليد على المدينة عثمان بن حيان الذي ما وصل المدينة حتى صعد المنبر لـــيقول: "أيها الناس إنا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه

ولهـــذا مـــا أن تـــتحدث عن موضوع العراق فإنه يتبادر إلى ذهن الحاضرين والسامعين هذا الأمر ويعللونه بأن الإمام علياً قال فيهم هذا الكـــلام، بينما العراق كان محضن الحضارة الإسلامية في أهم فترات تاريخهـــا، وفيه المراجع الدينيون العظام للسنَّة والشيعة وشاهد ذلك قبورهم، فيه الكتاب والمؤلفون وأرباب المذاهب، أهم فكر المسلمين كـــان وما يزال في العراق.. كيف تسوق كل هؤلاء بعصا الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق؟

هـــنا عـــندما يـــتحول النص في ذهن (القارئ من غير منهج صحيح) إلى لافتة ثقافية وشعار فكري ينتهي إلى مثل هذا الأمر.

ولتبـــيان الحال في هذا نقول: إنه بعد فرض صدور الكلام عن الإمـــام، فإنـــه قـــد قاله لجماعة معينين لهم ظروف موضوعية زماناً ومكاناً، وضمن ظروف خاصة ولأسباب محددة. ولا يمكن أن تسري هذه الصفات أو النعوت إلى كل الأجيال والأزمان.

وقد ضوى إليكم من يزيدكم خبالاً أهل العراق هم أهل الشقاق والنفاق هم والله عش النفاق وبيضته التي تفلقت عنه. والله ما جربت عراقياً قط إلا وجدت أفضلهم عند نفسه الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول. وأنت تلاحظ عزيزي القارئ أن الـــذي أصـــر على هذه الصفات لأهل العراق واستفاد منها سياسياً كان الطرف المخالف للتشيع، فتارة هو الأمويون وولاتهم، وأخرى الزبيريون.. مما يضفي ظلالاً من الشك على نسبة هذه الصفات لأهل هذه البلاد.

نعـــم نـــسب الشيخ الطوسي في كتابه التبيان في تفسير القرآن، هذا الكلام لأمير المؤمنين مرسلاً فقال: كما قال علي عليه السلام: يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق كما في التبيان 138/9.. ولم أعثر على هذا النص في موضع آخر عنه عليه السلام وعلى فرض صدوره فسيأتي تأويله. ولا يخفى أن كثرة الحديث بهذا الـــشأن في المصادر التاريخية، قد خلقت نوعاً من القناعة عند الكثيرين، حتى لتجد شاعراً شيعياً كبيراً كالشيخ محمد علي الأعسم يقول في رثائه الحسين:

ورد الحسين إلى العراق وظنهم تركوا النفاق إذ العراق كما هيه.

ثم لو سألنا أنفسنا: من هم أهل العراق؟ هم أهل الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً، فإن الكوفة قد مصرت وأسست في سنة 17 هجرية وكانت تعرف بكوفان الجند، وكانت أشبه بمعسكر انطلاق للجيوش الفاتحة لفارس وتكون هذا البلد من القبائل العربية القحطانية والعدنانية التي ذهبت من الجزيرة العربية بعد أن استوطنت هناك، وشكلت (أسباعها) من كندة وخزاعة وتميم... والإمام خطب فيهم هذه الخطب بعد سنة 35 هجرية فلم يتغير جيل وإنما نفس تلك القبائل بأشخاصها وشخصياتها، فهي في الواقع ليست عراقية إذ لم يكن هناك عراق بالنحو المعهود حالياً، بل هو نفسهم أهل الحجاز والبحرين واليمن.

ثم إن هؤلاء المخاطبين بخطاب الانتقاد والتقريع خوطبوا بذلك النحو بناء على أسباب معينة، وليس معلوماً بقاء نفس تلك الأسباب والحيثيات.

ها أنت عزيزي القارئ ترى أن هذا النص إذا تم التعامل معه من غير منهج صحيح يتحول إلى لافتة ثقافية خاطئة. فيكون كل عراقي شخصاً منافقاً أو صاحب شقاق وغدر!

مثال في الحياة الاجتماعية: ما هو مرتكز في أذهان الرجال (وأحياناً حتى النساء) من أن النساء ناقصات العقول والحظوظ والإيمان[1]، يجعل هذا من نقاط القوة التي يستقوي بها الأزواج على زوجاتهم، ويسيئون استغلال هذا الشعار.. فما دمن ناقصات العقول فإذن يجب أن تعطي راتبها لزوجها (صاحب العقل الكامل!) ليتصرف فيه كما يشاء!

---

(1) لقد تعرضنا بشكل تفصيلي إلى المراد من هذه الكلمات وناقشناها سنداً ومتناً في مقدمة كتاب (في رحاب الإمام علي) قسم النساء.

عـــندما ينفتح الإنسان انفتاحاً مباشراً من غير منهج على مثل هـــذا الـــنص يتحول هذا النص إلى لافتة ثقافية وشعار فكري وهو شعار خاطئ.. عندما قال الإمام هذا الكلام هنا – على فرض تمامية نـــسبته له – قال في مكان آخر أشياء أخرى، وأعلى من شأن المرأة، وقبل الإمام قال القرآن، وقال النبي وهذه كلها لا بد أن تُجمع حتى يتبين ما هي نظرية الإسلام بالنسبة للمرأة.

في المجال السياسي: ما ينقله البعض عن رسول الله ﷺ أنه قال في وصيته قرب موته: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب"[(1)] هذا الـــذي صـــار شعاراً لبعض الجهات السياسية المعاصرة، هل هو من الأحكـــام الـــشرعية الـــتي ينطبق عليها (حلال محمد حلال إلى يوم القـــيامة) أو هو من الأحكام التدبيرية والتنظيمية للمجتمع لأن مقام النبي أكثر من مقام عنده مقام المبلغ عن الأحكام ومقام المدير والمدبر للمجـــتمع الـــنبي يريد أن يدبر هذا المجتمع بقانون معين كما سيأتي الحديث عنه في المستقبل إن شاء الله تعالى.

فقد كان للنبي توجيهات تدبيرية ليس لها – بالضرورة – صفة الديمـــومة والاستمرار، وإنما النبي بوضعه لها وأمره بها جعلها محدودة بزمن معين!

مثال في قضية العقائد: إذا جاء أحدهم وقال إن الأئمة يقولون (قولوا فينا ما شئتم) فهل يمكن أن يقول أحد أن الإمام علي عضلاته من ألمنيوم أو حديد؟ هل يصح أن يقول أحد أن الإمام السجاد كان يطير في الهواء من كربلاء إلى المدينة؟ لأنه يشمله قولوا فينا ما شئتم؟ لا بـــد لكل ما يقال من إثبات، و(قولوا فينا ما شئتم) لا بد أن تقيد

---

(1) سيأتي الحديث عنه.

بقـــيود أخرى بحيث لا يكون كذباً ولا افتراء ولا بنحو يكون مخالفاً لـــشأن الإمـــام، بل إن المتأمل في أصل هذا المروي يرى أنه كان في صـــدد معالجة مشكلة الغلو والارتفاع[1]، وفي بعضها قولوا فينا كل خير فنحن أهله!

المـــشكلة هـــي أنه عندما يحدث انفتاح بلا منهج ولا خريطة للوصـــول تـــتحول بعض الأحاديث إلى لافتات ثقافية دائمة مع أنها ليست كذلك.

---

(1) بحار الأنوار – العلامة المجلسي، ج 25، ص 289.

– كـــشف الغمـــة: من كتاب الدلائل للحميري عن مالك الجهني قال: كنا بالمديـــنة حين أجليت الشيعة وصاروا فرقاً فتنحينا عن المدينة ناحية ثم خلونا فجعلنا نذكر فضائلهم وما قالت الشيعة إلى أن خطر ببالنا الربوبية، فما شعرنا بـــشيء إذا نحن بأبي – عبد الله عليه السلام واقف على حمار فلم ندر من أين جاء. فقال: يا مالك ويا خالد! متى أحدثتما الكلام في الربوبية؟ فقلنا: ما خطر ببالنا إلا الـــساعة، فقال: اعلما أن لنا رباً يكلأنا بالليل والنهار نعبده، يا مالك ويا خالـــد قولوا فينا ما شئتم، واجعلونا مخلوقين، فكررها علينا مراراً وهو واقف على حماره.

الفهم الحرفي أو العرفي للروايات

قـــال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية ولا تعقلوه عقل رواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل)[1].

كان من نتائج الصحوة الإسلامية عودة الكثير من شباب الأمة إلى المصادر الأصلية للروايات والأحاديث طلباً منهم لما يتصورونه من صـــافي الفكر والفقه وقد كان لهذا التوجه آثار محمودة إلا أن هناك مشاكل نتجت عن عدم وجود منهج للتعامل مع هذه النصوص ومع فهمهـــا باعتـــبار أن نصوص الروايات الموجودة في الكتب الحديثية والروائية ليست ثقافة جاهزة وإنما هي أشبه بالمواد الخام وهذه تحتاج إلى مـــنهج وخـــريطة ومتخصص، فعدم وجود هذا المنهج ينتج عنه أخطاء فكرية وقد ينتج عنه تزيّد في فهم القضايا الدينية.

ولذلك فإن علينا أن نحاول استكشاف بعض النقاط المساهمة في تعيين فهم النصوص الروائية والحديثية.

من هذه النقاط أن يتم فهم روايات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعصومين فهماً عرفياً بعيداً عن الحالة الحرفية.

النبي لم يأت بطريقة خاصة في الخطاب:

لتوضـــيح هـــذا الكلام ثم الاستشهاد عليه ببعض الشواهد

(1) نهج البلاغة – قصار الحكم، رقم 98.

نقول: إن رسول الله ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام لم يأتوا بطـــريقة جديدة في الخطاب والتفاهم، وإنما طريقتهم في الخطاب والتفاهم هي الطريقة السائدة عند العرب وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى مراراً ﴿... **وَمَا أَرْسَلْنَا منْ رَسُول إلاَّ بلسَان قَوْمه ليُبَيـــِّنَ لَهُمْ**...﴾[1] والأنبياء ولساهم الأعلى والأجلى، رسول الله ﷺ يقـــول: "إنـــا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقـــولهم"[2] ســـواء كان من حيث كمية العلم المعطى إليهم أو طـــريقة الأداء وأسلوب الإفهام وإلا ما كان ذلك بلاغاً وإبلاغاً.. فلـــو تكلـــم النبي باللغة الإنكليزية في وسط العرب ما كان ذلك بلاغاً وما كان النبي في ذلك بليغاً مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿**إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا**...﴾[3].

بـــل لـــو تكلم باللغة العربية ولكن بصورة معقدة على طريقة الفلاسفة مثلاً لم يكن هذا بلاغاً وإن كان بلغة عربية.

الـــبلاغ ومنه البلاغة يقتضي أن يتكلم المتحدث بجرعة تناسب عقـــول المـــستمعين وبلغة يصلون من خلالها إلى المعنى المراد. هذه الطـــريقة هي التي ينبغي أن يفكر فيها الباحث عندما يتناول نصاً من النصوص المروية عن النبي ﷺ. عندما تأخذ نصاً مروياً عن النبي ﷺ أو عن الإمام، تصوّر النبي أو الإمام في وسط مجموعة من الناس يريد أن يوصـــل إلـــيهم فكـــرة ويخبرهم عن قضية، وهذه الكلمات هي الموصل والمؤدي.

إنـــنا نرى أنه أحياناً يتقيد بعض الباحثين ومنهم علماء ببعض

---

(1) إبراهيم: 4.

(2) الكافي 268/8.

(3) الأنبياء: 106.

الكلمـــات والحروف ويصرون عليها ويقعون في إشكالات خطيرة تـــبعدهم عن فهم المعنى المراد من تلك الكلمات، بينما المفروض أن الناظـــر إلى روايات المعصومين يستحضر في ذهنه أنهم يتحدثون مع عـــدد مـــن الناس متوسطي الثقافة والمعرفة ويريدون أن يوصلوا لهم فكرة حتى يطبقوها[1].

بل إن المتحدث يريد أحياناً المعنى المباشر للفظ، ويريد المعنى غير المباشر أو يقصد المعنى الحقيقي وأحياناً المجازي.

هـــناك قـــضية مـــشهورة تشير إلى هذا المعنى، أن رجلاً جاء يـــستعطي رســـول الله ﷺ ويطلب منه المال، فبدأ يمدح رسول الله ويـــثني عليه ويذكر حاجته بمقدار من التفصيل فقال رسول الله لعلي عليه السلام: يـــا علي اقطع لسانه! استنكر.. بعض الحاضرين كيف؟ هذا رجـــل فقير جاء إلى النبي يستعطي مالاً ويحتاج إلى المساعدة فكيف يقطع لسانه؟ فقام الإمام علي بن أبي طالب وأعطاه مقداراً من المال فسكت ذاك وانقطع لسانه[2].

وهـــذا مـــتداول في لغـــة العرب فإن من جمال هذه اللغة أنها تستخدم المجاز والكناية وتلمح إلى المطلوب ولذلك كان الشعر عذباً، بل لذلك كانت البلاغة.. أما إذا لُمست ملامسة حرفية مباشرة فإنها قد تخلو من الجمال والطلاوة.

لكن يبتلى بعض الناظرين في كلمات المعصومين بمشكلة الحالة الحرفية في أحيان كثيرة.

---

(1) أشـــار الكثير من الباحثين إلى مشكلة دخول الفهم (المدرسي) والمصطلحات الفلسفية في فهم الروايات مما يبتعد بها عن جوها، وقد تعرض لذلك الدكتور الفضلي في كتابه دروس في فقه الإمامية، ج 2.

(2) في بعض المرويات أنه قال لبلال ذلك.

مثلاً يرى أحدهم الحديث: "أيما امرأة استعطرت ثم خرجت فمـــرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية"[1].. يقـــال هنا إن الزنا يتحقق بأمور معروفة، هو لقاء جنسي معهود بـــين رجل وامرأة من غير وجه مشروع، المرأة التي تخرج من بيتها متعطـــرة لم يـــصدر منها هذا الأمر فليس هذا المعنى مراداً بحرفيته قطعـــاً؟ إنما لا بد من حمله على معاني أخر وإلا كان هذا الحديث كاذباً.

الابـــتلاء في الحرفية في فهم النصوص الواردة عن الرسول وعن المعصومين يوقع الإنسان في أخطاء فكرية وأخطاء فقهية.

من الأمثلة التي يوردونها في هذا المجال ما نقله محي الدين النووي أحد علماء السنَّة في كتابه المجموع (وهو كتاب في الفقه المقارن بين مـــذاهب الـــسنَّة) نقل عن داود الظاهري الأصفهاني وهو صاحب مـــذهب قليل الأتباع في هذه الأزمنة وهو (مذهب داود الظاهري). فإنه قد استفاد من رواية عن رسول الله ﷺ أنه: "إذا بال أحدكم في مـــاء فلا يتوضأ منه" ومعناها أن هذا الماء يتنجس ولا يصح الوضوء بمـــاء نجس، يقول: إن داود الظاهري استنتج من هذه الرواية أحكاماً غريبة منها:

1. أنـــه إذا بال نفس الشخص فلا يجوز له أن يتوضأ منه، وأما لو كان بجانبه شخص آخر يجوز له الوضوء من هذا الماء الذي بال فيه. وعلل ذلك بأن الحديث نص هكذا "إذا بال أحدكم في ماء فـــلا يتوضـــأ منه" فهو لا يستطيع أن يتوضأ منه، وأما غيره فلم يذكر الحديث عدم جواز وضوئه منه.

---

(1) كنـــز العمال - المتقي الهندي، ج 16، ص 383.

2. وأنه إذا بال هو نفسه ثم توضأ لا يجوز ولكن لو تغوط هو نفسه في هذا المكان ثم توضأ جاز ذلك له لماذا؟ لأن الحديث لم يذكر التغوط بل ذكر التبول.
3. لــو أنــه بال في إناء ثم صبه في ذلك الماء ثم توضأ جاز ذلك له وعلــل ذلك أنه لم يبل في الماء مباشرة وإنما بال في شيء آخر ثم صــبه في الماء. ثم يقول إذا صح هذا المنقول عنه فهو شنيع وفي غاية الفساد[1].

نحــن نحــتاج أن نتعامل مع النصوص والروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام بفهم عرفي منفتح يفهــم المعنى ويُدرك مغزى الكلام من دون أن يكون أسيراً للألفاظ والحروف بحيث يؤدي به ذلك لمأزق مثل هذا الذي وقع فيه بعضهم.

ملاحظة الجانب الزمني في الروايات:

إن بعــض الروايات التي تحدث بها النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام لها جانب مرتبط بالزمان، وتغير الزمان والأحوال مؤثر في تغيرهــا.. وذلــك لأن الأحكام على أقسام؛ فقسم منها لا يتأثر بمــرور الــزمان ولا يتغير ولا يتبدل وهذا ينطبق عليه "حلال محمد

(1) ونــص كلامه كما هو في المجموع، ج 1، ص 118: فرع) نقل أصحابنا عن داود بن علي الظاهرى الأصبهاني رحمه الله مذهباً عجيباً فقالوا: انفرد داود بأن قال: لو بال رجل في ماء راكد لم يجز أن يتوضأ هو منه لقوله ﷺ: "لا يبولن أحــدكم في المــاء الدائم ثم يتوضأ منه" وهو حديث صحيح سبق بيانه قال: ويجــوز لغيره لأنه ليس بنجس عنده ولو بال في إناء ثم صبه في ماء أو بال في شط نهر ثم جرى البول إلى النهر قال يجوز أن يتوضأ هو منه لأنه ما بال فيه بل في غــيره قــال ولو تغوط في ماء جار جاز أن يتوضأ منه لأنه تغوط و لم يبل. وهذا مذهب عجيب وفي غاية الفساد فهو أشنع ما نقل عنه إن صح عنه.

حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة"[1] الخمر مثلاً حرام في كل زمان، الصلاة واجبة كذلك. وهذا الأمر في العباديات دائماً وفي غيرها في الجملة موجود.

لكـــن هناك قسماً آخر من النصوص ناظر إلى فترة زمنية معينة فلـــيس بالـــضرورة أن يثبت في غيرها، وقد صرح أئمة أهل البيت عليهم السلام بهذا المعنى في أكثر من حديث، مثلاً:

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود"..

فإنـــه يعتقد أن النبي قام بعدد من الأعمال في بداية الإسلام، وكان فيها إظهار لقوة المسلمين وشدة شوكتهم، فإنهم ينقلون عنه اســـتحباب صـــبغ اللحية والشوارب وشعر الرأس بينما المعروف عـــن الـــيهود أنهـــم كانوا لا يصبغون، على الأقل في تلك الفترة الزمنية.

كـــان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد أن يظهر المسلمين على أنهم شباب وبهم قـــوة في مـــواجهة أعدائهم، ومن ذلك ما ذكروه في علة الهرولة في السعي بين الصفا والمروة، أنه عندما دخل إلى مكة بعد صلح الحديبية وكـــان القرشـــيون يراقبون المسلمين الذين جاؤوا بلا سلاح لتأدية نـــسكهم فلمـــا رأى النبي المشركين ينظرون إلى المسلمين أمرهم أن يهرولوا في استعراض لإظهار القوة.

بعـــدما توفي الرسول سُئل أمير المؤمنين علي عن تغيير الشيب

---

(1) روى الشيخ الكليني في الكافي، ج 1، ص 58 عن علي بن إبراهيم، عن محمد بـــن عيسى بن عبيد، عن يونس، عن حريز عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عـــن الحـــلال والحـــرام فقال: حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة.. السند معتبر.

بالــــسواد لقوله ﷺ: "غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود" فقال أمير المؤمـــنين عليه السلام: (كـــان ذلك والدين قُلٌّ أما الآن وقد ضرب بجرانه واتـــسع نطاقه فامرؤ وما اختار)[1] أي أن الدين عندما كان حديث النشأة وقليل الأتباع كان ذلك التوجيه النبوي، وأما الآن بعدما قوي الدين وضرب بجرانه أي استقر أمره، واتسع نطاقه فالأمر واسع والمرء مخير فيه.

فيظهر من هذا أن التأكيد على صبغ الشيب، كان لجهة مرتبطة بالزمان، فإذا تغير الزمان وتغيرت بالتالي تلك الجهة لم يعد هذا الأمر يحمل نفس المرتبة من التأكيد.

ولعـــل عدم الالتفات إلى هذه الجهات تجعل البعض يسأل أو يعتـــرض على الأئمة عليهم السلام في بعض هيئاتهم الشخصية أو ألبـــستهم، فقد روى مصدق بن صدقة قال: دخل سفيان الثوري علـــى أبي عـــبد الله عليه السلام فـــرأى علـــيه ثياب بيض كأنها غرقى البيض[2]، فقال له: إن هذا اللباس ليس من لباسك! فقال له: اسمع مـــني وعِ ما أقول لك، فإنه خير لك عاجلاً وآجلاً، إن أنت متَّ على السنَّة ولم تمت على بدعة، أخبرك أن رسول الله ﷺ كان في زمان مقفر جدب، فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق أهلها بها أبرارها لا فجارهـــا، ومؤمـــنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفارها، فما أنكرت يا ثوري؟! فوالله إني لمع ما ترى ما أتى علي – مذ عقلت – صـــباح ولا مساء ولله في مالي حق أمرني أن أضعه موضعاً إلا وضعته[3]...

(1) نهج البلاغة – الكلمات القصار والحكم، رقم 17.

(2) قشر البيض الداخلي كناية عن نعومته.

(3) الكافي 65/5.

ومـــثال آخر: سُئل الإمام الصادق (عليه السلام) كان جدك علي (عليه السلام) يلـــبس الخـــشن مـــن الثـــياب وأنت تلبس الثياب الجيدة الناعمة! والمفروض أن منهجكم واحد.

فقال الإمام (عليه السلام): (كان ذلك في زمان لا يُنكر ولو لُبس اليوم لشهر به فخير لباس كل زمان لباس أهله)[1] ففي ذلك الوقت حيث حالـــة الفقر العام كان من المناسب أن يلبس الإمام (عليه السلام) مثل تلك الثـــياب، هذا إضافة إلى موقعه القيادي باعتباره رئيس الدولة كي لا يتبيغ بالفقير فقره يدعوه أن يلتزم بهذا المنهج.

أمـــا في زمان الإمام الصادق (عليه السلام) حيث كانت الحالة المادية العامـــة للـــناس حالـــة حسنة لو لبس أحدهم اللباس الذي كان يلبـــسه أمـــير المؤمنين لقيل: هذا مراءٍ يحب أن يشتهر بلباس أهل الزهد.

خير لباس الزمان لباس أهله:

لو أخذنا مثلاً: اللباس القصير التي تلتزم به بعض الفئات المتدينة اعـــتماداً على أنه في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يلبسون هذا اللباس! هذا ينطبق عليه أيضاً أنه كان في زمان لا يُنكر عليه، وأما اليوم فلو أن أحـــدهم فعل ذلك لصار شهرة الأسواق! ولهذا فقد أطلق الإمام الصادق (عليه السلام) قانوناً عاماً يحكم قضية اللباس ويعتبر بمثابة المحدد، وهو حاكم على باقي الروايات التي تتحدث عن الألبسة، وهو (خير لباس كـــل زمـــان لباس أهله) بالطبع لا بد من توفر ما ينبغي في مثله من شروط الستر وغير ذلك.

---

(1) الكافي 411/1.

هـــناك نقطة أخرى ينبغي توضيحها في موضوع اللباس القصير مع وجود التوجيهات التي تقول باستحباب لبس القصير كما جاء في تفسير قوله تعالى: **﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾**[1] حيث فسرت بالرفع والتشمير، وكـــذلك مـــا ورد في كراهة لبس الطويل والإسبال في الثياب، فإن الـــبعض قد فهم منها أن التقصير مطلوب لذاته، وأن الطويل مكروه لذاتـــه، بيـــنما في الـــروايات هناك تعليل أو توجيه لاستحباب هذا وكـــراهة ذاك، وهـــو تقيـــيده بكـــون الطويل على جهة الخيلاء والاستكبار وآنئذ يكون من منازعة الله في كبريائه، ويحمل معنى غير أخلاقي[2].

فعـــن الـــنبي ﷺ - في آخر خطبة خطبها: "... ومن لبس ثوباً فاختـــتال فـــيه خـــسف الله به من شفير جهنم يتخلخل فيها ما دامت السماوات والأرض، وإن قارون لبس حلة فاختال فيها فخسف به، فهو

(1) قال السيد الطباطبائي في تفسير الميزان، ج 20، ص 81، قوله تعالى: **﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّـــرْ﴾** قيل: كناية عن إصلاح العمل، ولا يخلو من وجه فإن العمل بمنـــزلة الثـــياب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن، وكثيراً ما يكنى في كلامهـــم عـــن صلاح العمل بطهارة الثياب. وقيل: كناية عن تزكية النفس وتنـــــزيهها عن الذنوب والمعاصي. وقيل: المراد تقصير الثياب لأنه أبعد من النجاســـة ولـــو طالت وانجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجس. وقيل: المراد تطهـــير الأزواج مـــن الكفر والمعاصي لقوله تعالى: **﴿... هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ...﴾** [البقرة: 187]. وقيل: الكلام على ظاهره والمراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاة.

(2) فعـــن الـــنبي ﷺ قال: "إتزر إلى نصف الساق أو إلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة" قال: إن الإسبال في الإزار والقمـــيص والعمامة، وقال: من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: "إن ريح الجنة ليوجد مـــن مـــسيرة ألـــف عـــام ولا يجدها جار إزاره خيلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين".. من كتاب مكارم الأخلاق للشيخ الطبرسي، ص 109 - 110.

يـــتخلخل إلى يوم القيامة". وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوصـــى رجلاً من بني تميم فقال له: إياك وإسبال الإزار والقميص، فإن ذلك من المخيلة، والله لا يحب المخيلة). وقال كاشف الغطاء في جملة ما يحرم من اللباس: "ومنها لباس التبختر والخيلاء، فإن من اختال نازع الله تعالى في جبروته، وخسف الله به شفير جهنم، وكان قرين قارون)[1].

وإذا كان التعليل هذا بمثابة التقييد، كما فهمه الفقهاء، فإنه ربما كان الثوب القصير الذي يصنع الكبرياء (مكروهاً لهذه الجهة) وفعلاً فـــإن قسماً ممن يلبس هذه الثياب القصيرة يعتقد في داخل نفسه أنه أفـــضل من كل من حوله حيث يعتقد أنه هو – دون سواه – يستن بسنَّة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.. وهذه هي غاية الكبرياء، ونهاية الخيلاء، وهذا هـــو الذي كان علة النهي عن الثوب الطويل، لقد هربت من الثوب الطـــويل فوقعت فيما هو أسوأ منه وهو ثوب الخيلاء والتكبر، كان اســـتحباب الثوب القصير لأنه أبعد عن الكبر، وأقرب إلى التواضع، فأصبح صانعاً للكبر ومانعاً عن التواضع في حق هذا اللابس. وانطبق عليه ما ورد في الحديث (ومن لبس ثوباً فاختال فيه خسف الله به من شفير جهنم يتخلخل فيها ما دامت السماوات والأرض).

مما يرتبط أيضاً بمدخلية الزمان وأنه من الممكن عندما يتغير يتأثر بذلك التغير الحكم، مدخليته في اللباس فإن هناك الكثير من الروايات تنهى عن لبس السواد وتقول إنه: (لباس أهل النار، لباس فرعون)[2]

(1) الموسوعة الفقهية الميسرة – الشيخ محمد علي الأنصاري، ج 3، ص 202 – 203.

(2) مثلما ورد: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالحيرة فأتاه رسول أبي جعفر الخليفة يدعوه فدعا بممطر أحد وجهيه أسود والآخر أبيض فلبسه ثم قال أبو عبد الله: أمـــا إني ألبـــسه وأنا أعلم أنه لباس أهل النار. وسئل الصادق عن الصلاة في القلنسوة السوداء؟ فقال: لا تصل فيها فإنها لباس أهل النار.

فلـــو افترضنا أن شخصاً في هذا الزمان لبس بدلة سوداء لأنه ذاهب إلى اســـتقبال رسمي أو عباءة سوداء أو ثوباً أسود في مناسبة عزاء.. فهـــل كراهة ذلك هي من الأحكام الدائمة التي ينطبق عليها (حلال محمـــد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة)؟ أو أنها قـــضية مـــربوطة بـــزمان وظرف معين؟ وحين يتغير ذلك الظرف والعنوان التابع له على أثر تغير الزمان يتغير حكمها؟

يذهب البعض إلى أن هذه التشريعات كانت ناظرة لزمان بني العباس، الذين عرفوا بأنهم المسودة، وأتوا براياتهم السود ولباسهم الأسود ورفعوا السواد[1] شعاراً لهم في بداية تأسيس دولتهم حتى إنـــه لما بُويع الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد أمر المأمون أن يغير لباس السواد إلى لباس الخضرة[2]. ومع أن كون الأخضر شعار بني هاشـــم غـــير ثابت، ولكن المعروف تاريخياً أن لباس بني العباس

(1) ربمـــا يكون ذلك استغلالاً منهم لما ورد من أخبار عن انتصار الرايات السود القادمة من خراسان وأنهم على الحق!

(2) تاريخ الطبري ج 7، ص 139: (ذكر) أن عيسى بن محمد بن أبي خالد بينما هو فيما هو فيه من عرض أصحابه بعد منصرفه من عسكره إلى بغداد إذ ورد علـــيه كتاب من الحسن بن سهل يعلمه أن أمير المؤمنين المأمون قد جعل على بن موسى بن جعفر بن محمد ولى عهده من بعده وذلك أنه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه وأنه سماه الرضا من آل محمـــد وأمـــره بطرح لبس الثياب السود ولبس ثياب الخضرة وذلك يوم الـــثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة 201 ويأمره أن يأمر من قبله من أصـــحابه والجند والقواد وبنى هاشم بالبيعة له وأن يأخذهم بلبس الخضرة في أقبيـــتهم وقلانسهم وإعلامهم ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك فلما أتى عيسى الخبر دعا أهل بغداد إلى ذلك على أن يعجل لهم رزق شهر والباقي إذا أدركت الغلـــة فقـــال بعضهم: نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم: لا نبايع ولا نلبس الخـــضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل.. إلى آخر ما ذكر.

كحركة سياسية وكدولة ونظام هو السواد.

ولهذا يرى البعض أن حديث أهل البيت عليهم السلام عن قضية السواد أنه ناظر إلى معالجة وضع سياسي وإعلان عدم مشروعيته بهذا الأسلوب، فيكون لبس السواد من باب التشبه بأعداء الله والطواغيت الظالمين، فهو منهي عنه بهذه الطريقة. ويكون السواد من باب الإشارة لا أن له موضوعية في النهي!

وإلا فإن هناك روايات أخر تصرح بأنه (بيض قلبك والبس ما شئت)[1]، وبأن بعض الأئمة قد لبسوا السواد.

بل إن لدينا بعض الروايات التاريخية تقول إن الفاطميات لبسن السواد بعد مقتل الحسين عليهم السلام وكان هذا بحسب القاعدة تحت نظر وسمع الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وهذا يعني أنه على الأقل ليس بمكروه وإلا كان الإمام يوجههن إلى ما هو المناسب من الفعل ولكن مع ذلك لم يقم الإمام السجاد بهذا التوجيه.

---

(1) عن داود الرقي قال: كانت الشيعة تسأل أبا عبد الله عن لبس السواد؟ قال: فوجدناه قاعداً عليه جبة سوداء وقلنسوة سوداء، وخف أسود مبطن بسواد، ثم فتق ناحية منه وقال: أما أن قطنه أسود وأخرج منه قطناً أسود، ثم قال: (بيض قلبك والبس ما شئت). وللتفصيل يراجع كتاب من قضايا النهضة الحسينية القسم الثالث – للمؤلف.

تعدد مقامات النبي وأثرها في فهم النصوص

هـــذه السطور تتناول لزوم التفريق بين النصوص الصادرة عن النبي ﷺ وعن المعصومين بحسب اختلاف مقاماتهم.

يذكر العلماء أن للنبي ﷺ ثلاثة مقامات:

المقام الأول: هو مقام تبليغ الأحكام عن الله عزّ وجل.

المقام الثاني هو مقام القضاء.

والمقـــام الـــثالث هـــو مقام الولاية على المجتمع المسلم وإدارة شؤونه.

وباعتبار أن الصحابة كانوا حول رسول الله فقد نقلوا كلماته، وهـــي تـــرتبط بالمقامات الثلاثة من دون تفريق بينها، ولهذا حصل أحـــياناً الاخـــتلاط بين هذه الكلمات المنقولة وأنها من أي مقام من المقامات.

1. مقام النبوة والتبليغ:

وعند النظر إلى المقام الأول نجد أنه المقام الأساس للنبي ﷺ، ﴿**يَا أَيُّهَـــا النَّبِـــيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِـــهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾[1]، **وعلى هذا الأساس كان التوجيه الإلهي**

(1) الأحزاب: 45 - 46.

للــناس أن ﴿... **وَمَــا آتَــاكُمُ الرَّسُــولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْــتَهُوا**...﴾[1] وفي هــذا الموقع يكون (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة).

وكمــثال على هذا المقام ما يرتبط بالعبادات، يصلي النبي أمام الناس بكيفية ثم يقول (صلوا كما رأيتموني أصلي)[2]، وبالتالي يأخذ المسلمون هذه الكيفية للصلاة وما فيها من أفعال وأقوال باعتبار أنها أحكام شرعية ثابتة لا تتخلف ولا تتغير، إذا أراد أحد أن يأتي بصلاة كاملة الأجزاء والشرائط فلا بد أن ينظر إلى طريقة صلاة رسول الله ﷺ الذي قال صلوا كما رأيتموني أصلي.

وهكــذا في الحــج فإنه ﷺ دعا الناس كما حصل في حجة الــوداع وأرســل رسله إلى أطراف المدينة والبوادي أن النبي ﷺ ســيحج في هذا العام فمن أرد أن يحج بحج النبي فليأت، فلما أتى الــناس معه قال: "خذوا عني مناسككم"[3]، يعرفهم أجزاء الحج وكيفية الأفعال.

---

(1) الحشر: 7.

(2) صحيح البخاري - كتاب الأذان، وغيره من مصادر جمهور المسلمين، وبالرغم من أنه لم يرد مسنداً في المصادر الحديثية الشيعية، إلا أنه ورد فيها مرسلاً عن الــنبي، واستدل به فقهاؤهم بدءاً من الشريف المرتضى والشيخ الطوسي، ومن تأخر عنهم.. وكأن شهرته أغنت عن الكلام في سنده.

(3) قال العجلوني في كشف الخفاء، ج 1، ص 380 (خذوا عني مناسككم) رواه مــسلم وأبو داود والنسائي عن جابر بلفظ رأيت رسول الله ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: "لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه".

وهــذا الحــديث غير موجود من طرق أصحابنا كما قال المحدث البحراني في الحدائق.. ولكن يكثر الاستدلال به والاستشهاد في كتب الفقه.

هنا يأتي الكلام عن أن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، فالتشريعات العبادية التي بلغها رسول الله ﷺ عن ربه، لا تتغير ولا تتبدل، لا يؤثر فيها الزمان ولا المكان، لا ترتبط بوجود الدولة الإسلامية وعدمها.

2. مقام القضاء بين الناس:

هناك مقام آخر للنبي ﷺ وهو مقام القضاء بين الناس، فنحن نعلم أن رسول الله ﷺ عندما أنشأ ذلك المجتمع سنّ فيه قضاء ليأخذ كل ذي حق حقه، ولقطع المنازعات، وفصل الخصومات.

وهناك عدد من القضايا التي أُثرت عن رسول الله ﷺ في قضائه، بعضها ضمن الإطار الأول (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة)، كما في ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**﴾، فإذا جاء أحد لرسول الله في قضية ميراث قضى بينهم على هذا الأساس، وهناك قسم آخر من القضايا ترتبط بالزمان والمكان وأحياناً حتى بالأشخاص المتقاضيين. في هذا المقام يكون النبي في صدد حل مشكلة بين اثنين، يدرك أن هناك طرفاً معتدياً وطرفاً معتدى عليه ويحاول أن ينهي هذه المشكلة..

مثلما نقل من قول النبي لشاب جاء ينازع أباه في مقدار من المال بأن يسترجعه، والده، فقال له النبي: "أنت ومالك لأبيك"[1].

---

(1) نقلها الكليني في الكافي، ج 135/5، عن الإمام الباقر عليه السلام مختصرة، أن رسول الله (صلى) لرجل: "أنت ومالك لأبيك"، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: وما أحب له أن يأخذ من مال ابنه إلا ما احتاج إليه مما لا بد منه، إن الله عز وجل لا يحب الفساد. بينما نقل الحادثة العجلوني في كشف الخفاء، ج 1، 208، بنحو أكثر تفصيلاً.. كالتالي:

مثل هذه الحادثة يمر عليها العلماء فيقولون أنها قضية في واقعة، وهـــي مسألة أخلاقية، وليست حكماً إلهياً دائماً، ولا قاعدة قانونية مـــستمرة، ولهذا لا يلتزمون بمؤداها فقهاً وقانوناً. فلو استدان الوالد من ولده يجب عليه أن يؤدي دينه..

لكـــن النبي في ذلك الظرف كان يريد أن ينهي هذا الشجار والـــتعدي من قبل الولد على حرمة أبيه، فيأتي له بقانون أخلاقي، يقـــول لـــه كيف تطالب والدك مثلاً بعشرة دنانير وتهتك حرمته

- "أنت ومالك لأبيك" رواه ابن ماجه عن جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي مـــالاً وولداً وإن أبي يريد أن يجتاح مالي فذكره، ورواه عنه الطبراني في الأوسط والصغير بسند فيه المكندر ضعفوه عن جابر، قال جاء رجل إلى النبي (صلى) فقال: يا رسول الله إن أبي أخذ مالي! فقال النبي (صلى): اذهب فأتني بأبيك! فنـــزل جبريل على النبي (صلى) فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه! فلما جـــاء الـــشيخ قال له النبي (صلى): ما بال ابنك يشكوك تريد أن تأخذ ماله؟ قـــال: ســـله يا رسول الله هل أنفقته إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفـــسي؟ فقال النبي (صلى): إيه دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته في نفسك مـــا سمعته أذناك! فقال الشيخ: والله يا رسول الله ما يزال الله يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي فقال: قل وأنا أسمع فقال: قلت:

غـــذوتك مولوداً ومنتك يافعاً ... تعـــل بمـــا أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت ... لـــسقمك إلا ســـاهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طـــرقت بـــه دوني فعيني تهمل
فلمـــا بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلـــت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنـــك أنـــت المنعم المتفضل
فليـــتك إذا لم ترع حق أبوتي ... فعلـــت كما الجار المجاور يفعل
فأوليـــتني حق الجوار فلم تكن ... علـــي بمـــال دون مالك تبخل

قال: فحينئذ أخذ النبي (صلى) بتلابيب ابنه وقال أنت ومالك لأبيك!

وتـــصر علـــيه وتتـــنقل به محكمة إلى أخرى والحال أن وجودك وأصـــلك وفرعك كله من بركات والدك، هنا النبي ﷺ كان في صـــدد حل هذه المشكلة وهذه القضية الخارجية، لا أنه يقرر معنى جديـــداً أو أن يجعل قانوناً استثنائياً في التملك بحيث تكون أملاك الولد ملكاً لأبيه!

نعـــم يجـــب على الولد الغني الإنفاق على الوالد الفقير والأم الفقـــيرة، وكذلك العكس يجب على الوالد الغني الإنفاق على الولد الفقير. لكن كلاً منهما حر في أملاكه ومسلط عليها.

3. موقع الولاية وإدارة المجتمع:

فــ ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ...**﴾[1] وبهذا المعنى قد حدد القرآن الأولياء بعد الله سبحانه والنبي، فقال: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُـــولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُـــونَ**﴾[2] هـــذا موقـــع ولاية، وإدارة مجتمع، جعلها الله لنبيه وللمعصوم من بعده.

الاختلاط الذي يحصل أحياناً بين الروايات.. أن هذه الرواية مـــن أي نوع؟ هل هي في مقام الولاية وإدارة المجتمع أو هي من مقام القضاء فهي قضايا في الغالب لها جانب زمني وظرفي محدود، أو هـــي من مقام الأحكام الإلهية الكلية والدائمة التي يبلغها النبي عن ربه.

ولتوضيح الفرق نورد بعض الأمثلة:

---

(1) الأحزاب: 6.

(2) المائدة: 55.

التهديد بإحراق من تأخر عن الجماعة:

يفتي المذهب الحنبلي بوجوب صلاة الجماعة في الأوقات الخمسة[1]، ويعتمدون على جملة من الأدلة من بينها ما يروى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: "والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب ليحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم" وأنه لو لم تكن واجبة لما هدد بهذا التهديد، إذ المستحب لا عقوبة على تركه!

وهنا يأتي الفرق بين أن ننظر إلى هذه الرواية على أنها كاشفة عن حكم إلهي كلي ودائم، أو أنها نوع من أنواع التدبير الاجتماعي والولائي الذي كان يمارسه النبي في مجتمع المدينة؟ وبالتالي فهو ناظر إلى حالة خاصة تحتاج إلى علاج من هذا النوع؟

حينما نأتي إلى روايات أهل البيت نرى أن هذه الرواية أيضاً موجودة، ولكن بالنظر إلى روايات أخر يتبين أن هذه الرواية ليست

(1) قال عبد الله بن قدامه في كتابه المغني، ج 2، ص 2 – 3: الجماعة واجبة للصلوات الخمس روي نحو ذلك عن ابن مسعود وأبي موسى وبه قال عطاء والأوزاعي وأبو ثور ولم يوجبها مالك والثوري وأبو حنيفة والشافعي لقول النبي (صلى): "تفضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة" متفق عليه ولأن النبي (صلى) لم ينكر على اللذين قالا صلينا في رحالنا ولو كانت واجبة لأنكر عليهما ولأنها لو كانت واجبة في الصلاة لكانت شرطاً لها كالجمعة ولنا قول الله تعالى: **﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ...﴾** الآية. ولو لم تكن واجبة لرخص فيها حالة الخوف ولم يجز الإخلال بواجبات الصلاة من أجلها وروى أبو هريرة أن رسول الله (صلى) قال: "والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب ليحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال لا يشهدون الصلاة فأحرق.. عليهم.. بيوتهم".. انتهى.. ويرى فقهاء الشيعة أن الجماعة مستحبة.

مـــن الأحكـــام الإلهـــية وإنما تنتمي إلى التدبير الاجتماعي والولائي وبعبارة أخرى هذا ليس من القسم الأول وإنما من القسم الثالث.

ومضمون تلك الروايات أن النبي ﷺ كان يلاحظ وجود عدد مـــن المـــنافقين يتعمدون في وقت الصلاة أن يجتمعوا في بيوتهم ولا يخرجوا مع الناس ويتبعوا (غير سبيل المؤمنين) مع كون أماكنهم قريبة مـــن مسجد الرسول ﷺ، وكان هذا أشبه بمحاولة إضعاف الوجود الإسلامي، وتوهين الموقع القيادي للنبي، ويشم منه رائحة تآمر سيئ يُدبـــر للمجتمع المسلم في المدينة المنورة، لذلك واجه النبي هذا الأمر بعـــنف شـــديد، لأن قـــضية هذه المجموعة ليست قضية ترك صلاة الجماعـــة من حيث عدم الرغبة في ثوابها، وإنما كان وراء الأكمة ما وراءهـــا، ولـــذلك ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام[1]: (كان رســـول الله يسأل عن بعضهم بأسمائهم)، وأنهم هل هم في المدينة أو خارجها، يأتي للمسجد ويسأل هل فلان موجود في المدينة أم لا، إذا أجـــيب بنعم يسأل النبي لماذا لم يأتِ؟ يوجد هناك رصد لفئة معينة كانـــت تـــتعمد عدم المشاركة مع المسلمين، وربما خططت لأشياء ضارة بالمجتمع الإسلامي، هذه المجموعة وجه إليها النبي تحذيراً وتهديداً أن الانقلاب على الوضع الإسلامي من خلال إضعافه بتلك الطريقة، سيواجه بحزم، أن نجمع عليهم حطباً ونحرق بابهم. ويصفهم فيما بعد

(1) وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي، ج 8، ص 294؛ محمد بن الحسن بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن النضر، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول صلى رسول الله (صلى): الفجر (1) فأقبل بوجهه علـــى أصحابه فسأل عن أناس يسميهم بأسمائهم. فقال: هل حضروا الصلاة؟ فقالـــوا: لا يـــا رسول الله فقال: أغيب هم؟ قالوا: لا، فقال: أما أنه ليس من صلاة أشد على المنافقين من هذه الصلاة والعشاء، ولو علموا أي فضل فيهما لأتوهما ولو حبواً.. السند معتبر.

بأنهم المنافقون وأنه ليس أشد عليهم من حضور صلاة الجماعة عشاء وفجراً!

ونفــس الأمــر تكــرر مــع الإمام علي (عليه السلام) فكان له نفس الموقــف[1]، ممــا يعــني أن القضية لم تكن في حدود شهود الصلاة لتحصيل الثواب، والامتناع عن ذلك زهداً في الثواب وإنما إضافة إلى ذلك كان هناك قضية أكبر.

ثم لا يساكنوننا، يعني لا يبقوا معنا في المدينة ولا يشاربوننا ولا يؤاكلونــنا، نلاحظ أن مثل هذه الرواية تجعل التهديد ينتمي القسم الثالث وهو قسم إدارة المجتمع.

الإشــكال الذي حصل هو أن بعض الفقهاء تصوروا أن هذا حكم إلهي كلي ودائم، وأنه لو تأخر شخص اليوم عن صلاة الجماعة فــلا بــد أن يعاقَب وهذا معناه الوجوب العيني في جميع الفرائض.. بينما لو تم التفريق بين المقامين.. لما حكموا بذلك.

جواز الفرار من الوباء:

مــثال آخــر: ما ذكره بعض فقهاء الجمهور من أن الفرار من الــوباء غير جائز، فلو مثلاً حدث وباء كالطاعون هل يجوز أن يفر الإنــسان منه ويخرج من بلد الوباء إلى بلد آخر؟ لا يجوز ذلك عند

---

(1) وســائل الشيعة (آل البيت) – الحر العاملي، ج 5، ص 196؛ عن أبي عبد الله الــصادق (عليه السلام) أن أمــير المؤمــنين (عليه السلام) بلغه أن قوماً لا يحضرون الصلاة في المــسجد، فخطــب فقال: إن قوماً لا يحضرون الصلاة معنا في مساجدنا فلا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يشاورونا ولا يناكحونا ولا يأخذوا من فيئنا شيئاً، أو يحضروا معنا صلاتنا جماعة، وإني لأوشك أن آمر لهم بنار تشمل في دورهم فأحــرق علــيهم أو ينتهون، قال: فامتنع المسلمون عن مؤاكلتهم ومشاربتهم ومناكحتهم حتى حضروا الجماعة مع المسلمين.

بعض فقهاء الجمهور[1] ويجوز عند فقهاء الإمامية[2].

وموضع الخلاف يبدو أنه يعتمد على أن ما روي عن الرسول ﷺ هـــل هو حكم دائم، أو هو تدبير في واقعة خاصة؟ فالذي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه تدبير في قضية حربية خاصة، وبالتالي لا يتخذ طابع الشمولية والعموم.

فقد ذكر الشيخ الصدوق رحمه الله في كتابه علل الشرائع رواية عـــن الـــصادق عليه السلام عن علي ابن المغيرة قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام: القـــوم يكونون في البلد يقع فيها الموت ألهم أن يتحولوا عنها إلى غيرهـــا؟ قـــال: نعم! قلت: بلغنا أن رسول الله ﷺ عاب قوماً بـــذلك، فقال أولئك كانوا رتبة بإزاء العدو، فأمرهم رسول الله ﷺ

---

(1) فقـــد ذكـــر الآلوســـي في تفسيره، ج 28، ص 97 ذلك فقال في ذيل الآية المـــباركة: ﴿... فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي بأن يجازيكم بهـــا، واستـــشعر غير واحد من الآية ذم الفرار من الطاعون، والكلام في ذلك طـــويل، فمـــنهم من حرمه - كابن خزيمة - فإنه ترجم في صحيحه - باب الفرار من الطاعون من الكبائر - وأن الله تعالى يعاقب من وقع منه ذلك ما لم يعـــف عنه، واستدل بحديث عائشة "الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف" رواه الإمام أحمد، والطبراني، وابن عدي، وغيرهم، وسنده حسن. وذكر التاج السبكي أن الأكثر على تحريمه، ومنهم من قال: بكراهته كالإمام مالك، ونقل القاضـــي عياض. وغيره جواز الخروج عن الأرض التي يقع بها عن جماعة من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري.

وقال المباركفوري في كتابه تحفة الأحوذي، ج 4، ص 150: قلت والحق أن الخروج من أرض وقع فيها الطاعون فراراً منه حرام وقد ألفت في هذه المسألة رسالة سميتها خير الماعون في منع الفرار من الطاعون.

(2) فقد ذكر ذلك السيد اليزدي في العروة الوثقى، ج 2، ص 22، ولم يعلق عليه أحـــد في الحاشـــية من الفقهاء مما يعني موافقتهم إياه: ويجوز الفرار من الوباء والطاعون، وما في بعض الأخبار من أن الفرار من الطاعون كالفرار من الجهاد مختص بمن كان في ثغر من الثغور لحفظه.

أن يثبتوا في مواضعهم، ولا يتحولوا منه إلى غيره، فلما وقع فيهم الموت تحولوا من ذلك المكان إلى غيره، فكان تحويلهم من ذلك المكان إلى غيره كالفرار من الزحف)[1].

لقد كانت القضية قضية خاصة، هناك مواجهة بين فرقة من المسلمين وأخرى من الكفار، فوقع الوباء في تلك المنطقة فأراد بعض هؤلاء المسلمين (الفرقة العسكرية) المرابطة والمحافظة على الثغور أن يهربوا ويتراجعوا، خوفاً من هذا الوباء الذي حدث فخشي رسول الله ﷺ أن يكون ذلك سبباً لاجتياح المشركين للبلد الإسلامي، فقال: إن الفرار من الوباء في هذه الحالة هو كالفرار من الزحف لأنه ينتهي إلى نفس نتيجته وهو تمكين المشركين من بلاد المسلمين.

أين هذا من كونه حكماً شرعياً دائمياً بحيث لو اجتاح وباء الطاعون أو الكوليرا أو غيرها بلداً، فإنه لا يجوز لأهله أن يخرجوا عنه بل ينتظروا أن يموتوا واحداً بعد الآخر؟

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب:

مثال ثالث: ما ينقل عن رسول الله ﷺ من قوله: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب".. وهذا من الأحاديث التي تعتمد عليها بعض الحركات الإسلامية في عملها المسلح المواجه لبعض أنظمة الحكم في جزيرة العرب، فإنهم ينقمون عليها أنها تترك المشركين من المسيحيين واليهود في هذه البلاد مع أن الرسول يقول: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب"!

---

(1) الشيخ الصدوق في علل الشرائع، ج 2، ص 521. حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل رحمه الله قال حدثنا علي بن الحسين السعد آبادي عن أحمد بن أبي عبد الله عن ابن محبوب عن عاصم بن حميد عن علي بن المغيرة..

ولنا عدة وقفات مع هذه الرواية:

* هذا النص منقول بعدة أنحاء، وليس بنحو واحد فمنه ما روي عن ابن عباس[1] أنه اشتد برسول الله وجعه.. إلى أن قال: (أخرجوا المـــشركين مـــن جزيـــرة العرب). وهناك نص آخر وفيه تغيير لفظ المـــشركين باليهود[2]، وفي نقل ثالث بهذا النص (أخرجوا اليهود من الحجاز وأخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب)[3].

والمصدر الأساس فيه هو كتب الحديث السنية بينما لا نجد في كـــتب الحـــديث الشيعية أثراً لهذا النص، ومن نقله من مصنفي الـــشيعة إنمـــا اعـــتمد على روايته عن كتب الجمهور كالبخاري وغيره.

* يفترض أن الحادثة واحدة وهي التي كانت قرب وفاة رسول الله ﷺ، وأن الـــنقل قـــد تعدد ولكن الحادثة واحدة. ولذلك فمن الطبيعي إرجاع العبارات إلى معنى واحد.. وحمل التغيير الذي حصل فيها على شيء من الاشتباه والاختلاط عند الرواة.

---

(1) كما في صحيح البخاري، ج 4، ص 66: سعيد بن جبير سمع ابن عباس رضي الله عـــنهما يقـــول: يـــوم الخميس! وما يوم الخميس؟ ثم بكى حتى بل دمعه الحـــصى. قلت: يا ابن عباس ما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله (صلى) وجعـــه فقال: ائتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً فتنازعوا ولا ينبغـــي عند نبي تنازع.. فقالوا: ماله أهجر؟ استفهموه! فقال ذروني فالذي أنا فـــيه خـــير مما تدعوني إليه فأمرهم بثلاث قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم والثالثة إما أن سكت عنها وإما أن قالها فنسيتها قال سفيان: هذا من قول سليمان..

(2) كما في مجمع الزوائد للهيثمي 325/5.

(3) مسند أحمد – الإمام أحمد بن حنبل، ج 1، ص 195؛ عن أبي عبيدة قال آخر: مـــا تكلم به النبي (صلى): "أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب".

* نحـــن نعتقد أن هذا الإجراء كان إجراء إدارياً وولائياً أراد النبي ﷺ أن يقوم به – مع فرض صدور الرواية عنه – غير أن الزمان لم يمهله، فأوصى المسلمين بذلك بعدما لم يمكن أن يعين بشكل رسمي وصـــيه في تلـــك الحادثـــة التي تألم منها ابن عباس وهي حادثة يوم الخمـــيس. فقام بالوصية بشكل عام في هذه القضية حيث المسؤولية ســـتكون مسؤولية عموم المسلمين، أو لا أقل من حضر مجلسه آنئذ وهم كبار الصحابة وأهل الحل والعقد في المجتمع المسلم.

* إن لفـــظ المشركين قد يطلق ويراد منه الوثنيون والذين ليس لهـــم رســـالة سماوية، وقد يطلق أحياناً في بعض آيات القرآن الكريم ويـــراد منه ما يشمل أهل الكتاب، ولكن الأكثر في استعمال القرآن الكريم هو الأول. وإلى ذلك أشار آية الله مكارم الشيرازي في تفسيره الأمثل فقال:

مفـــردة (المـــشرك) تطلق غالباً في القرآن الكريم على من يعبد الأوثـــان، ولكـــن بعض المفسرين ذهب إلى أن المشرك يشمل سائر الكفـــار كالـــيهود والنصارى والمجوس (وبشكل عام أهل الكتاب) أيضاً، لأن كل واحدة من هذه الطوائف يعتقد بوجود شريك للباري عز وجل، فالنصارى يعتقدون بالتثليث، والمجوس يذهبون إلى الثنوية وأن رب العالم هو مزداً وأهريمن، واليهود يرون أن (عزير) ابن الله. ولكـــن بالرغم من أن هذه الاعتقادات الباطلة موجبة للشرك إلا أن الآيـــات الشريفة التي تتحدث عن المشركين في مقابل أهل الكتاب ومع الأخذ بنظر الاعتبار أن اليهود والنصارى والمجوس يرتكزون في أســـاس ديانـــتهم على النبوات الحقة والكتب السماوية فيتضح أن منظور القرآن الكريم من المشرك هو عباد الوثن. وقد ورد في الحديث النـــبوي المعـــروف في ضمن وصايا متعددة "أخرجوا المشركين من

جزيرة العرب" وهو شاهد على هذا المدعى، لأن من المسلّم أن أهل الكتاب لم يخرجوا من جزيرة العرب، بل بقوا هناك يعيشون جنباً إلى جـــنب مـــع المسلمين بعنوان أقلية دينية، ويلتزمون بما أمر به القرآن الكريم من أداء الجزية إلى المسلمين(1).

فـــإذن يكون الأمر الصادر بإخراج المشركين من جزيرة العرب غير شامل لأهل الكتاب، بالعنوان الأولي. لما سبق آنفاً.

* علـــى فـــرض شموله لأهل الكتاب وخصوصاً اليهود أو أهل نجران، فإن ذلك ربما لم يكن لأجل اعتناقهم تلك الديانات وإنما على أثر عدم وفائهم بشروط المواطنة، والتعايش مع المسلمين، فإن بعض الـــروايات تـــصرح بـــأن النبي ﷺ كان قد صالح يهود نجران على إبقـــائهم فيها بشرط أن لا يتعاملوا بالربا، وقد يكون لأن فيه تهديداً لاقتـــصاد المسلمين، فاشترط عليهم لكي يبقيهم أن يتركوا التعامل بالربا، فنكثوا ونقضوا هذا العهد، وقد أشار المحقق صاحب الجواهر إلى ذلـــك فقال: إنما أوصى النبي ﷺ بإخراج أهل نجران من الجزيرة لأنه صالحهم على ترك الربا فنقضوا العهد(2).

ونفس الكلام يأتي في موضوع اليهود حيث كانوا يشكلون قوة مالية ضخمة، وكانوا إلى ذلك يتآمرون مع المشركين ضد المسلمين.

فمن الطبيعي أن يقدم النبي – وحالة الإسلام لما تزل حالة ناشئة – على تدبير من هذا النوع لكيلا يبقى هؤلاء على سيطرتهم بعد أن نقضوا مواثيقهم، إذا فهم هذا النص بهذه الطريقة يكون ذلك النص محدوداً بتلك الفترة التي كان فيها خطر منهم على وجود الإسلام في

---

(1) الأمثل في تفسير كتاب الله المنـــزل، ج 2، 127.

(2) جواهر الكلام – الشيخ الجواهري، ج 21، ص 290.

الجزيرة العربية أما بعد قوة الإسلام أو كما قال أمير المؤمنين (أما الآن وبعد أن ضرب بجرانه واتسع نطاقه) فالأمر يختلف.

والأمثلة كثيرة..

الخليفة الثاني وأحكام تدبيرية:

لو أردنا أن نتكلم الآن خارج الإطار الشيعي، فإن من المعروف أن الخليفة الثاني قد منع متعة الحج ومتعة النساء وأضاف الصلاة خير من النوم في الإقامة، وحذف (حي على خير العمل) من الأذان[1].

فـــنقول هنا – تنـــزلاً –: هل أن هذا المنع حكم إلهي أو أمر تدبيري اجتهد فيه الخليفة الثاني بما رآه في مصلحة المجتمع؟

مـــن الواضح – منها كما في تاريخها – أنها إجراءات تدبيرية، مثلاً أن الخليفة الثاني لما رأى أنه إذا حدث نكاح مؤقت ويخشى أن لا يعرف نسب الأولاد، فقام بمنع ذلك وقد نقل عنه قوله: (لا أوتى بـــرجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة)[2].. ونقول إن هذا لـــيس حكم إلهي وإنما كان حكماً تدبيرياً للمجتمع في ذلك الوقت، انتهـــى ذلك الظرف والدواعي التي دعت إليه.. فلماذا يتم التمسك

---

(1) للتفـــصيل راجـــع النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين العاملي، المورد 21 – 24.

(2) صـــحيح مـــسلم – مسلم النيسابوري، ج 4، ص 38: كان ابن عباس يأمر بالمتعة وكان ابن الزبير ينهى عنها قال: فذكرت ذلك لجابر بن عبد الله فقال: على يدي دار الحديث تمتعنا مع رسول الله (صلى) فلما قام عمر قال: إن الله كـــان يحـــل لرسوله ما شاء بما شاء وأن القرآن قد نـــزل منازله فأتموا الحج والعمرة لله كما أمركم الله وأبتوا نكاح هذه النساء فلن أوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة؛ وحدثنيه زهير بن حرب حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة بهذا الإسناد وقال في الحديث فافصلوا حجكم من عمرتكم فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم.

بهـــذا المنع والتحريم وكأنه حكم إلهي دائم لا يتغير؟ وهكذا فقد تم حـــذف حي على خير العمل حتى لا يتكل الناس على الصلاة ويتركوا الجهـــاد[1]! ماذا بعد زمان الجهاد؟ الآن لا يوجد جهاد بالمعنى المصطلح حروب وفتح، فإذا كان هناك مبرر لرفع حي على خير العمل من الأذان في ذلك الوقت أيام الخليفة الثاني فهو غير موجود الآن.. وهكذا.

قضية تحليل الخمس:

ورد في رواياتنا[2] أن الإمام الجواد (عليه السلام) قد حلل الخمس لشيعته في سنة (221) للهجرة. وذلك لظروف معينة أحاطت بهم، مما يعني أن

---

(1) كما ذكر في كتاب علل الشرائع مروياً عن عكرمة عن ابن عباس، لأي شيء حذف من الأذان حي على خير العمل.. قال..

(2) الحر العاملي، في وسائل الشيعة (آل البيت)، 501/9 بسنده: الشيخ الطوسي عن محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد بن محمد وعبد الله بن محمد جميعاً، عن علـــي بـــن مهزيار قال: كتب إليه أبو جعفر (عليه السلام) – وقرأت أنا كتابه إليه في طريق مكة – قال: إن الذي أوجبت في سنتي هذه وهذه سنة عشرين ومائتين فقـــط لمعنى من المعاني أكره تفسير المعنى كله خوفاً من الانتشار، وسأفسر لك بعـــضه إن شاء الله إن موالي – أسأل الله صلاحهم – أو بعضهم قصروا فيما يجـــب عليهم، فعلمت ذلك فأحببت أن أطهرهم وأزكيهم بما فعلت في عامي هذا من أمر الخمس (في عامي هذا)، قال الله تعالى: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**، **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الـــتَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**، **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اَللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** ولم أوجب ذلك عليهم في كل عام، ولا أوجب عليهم إلا الزكاة التي فرضها الله عليهم، وإنمـــا أوجـــبت عليهم الخمس في سنتي هذه في الذهب والفضة التي قد حال علـــيهما الحول، ولم أوجب ذلك عليهم في متاع ولا آنية ولا دواب ولا خدم ولا ربـــح ربحه في تجارة ولا ضيعة إلا ضيعة سأفسر لك أمرها تخفيفاً مني عن موالي ومنّاً مني عليهم لما يغتال السلطان من أموالهم ولما ينوبهم في ذاتهم..

ذلك كان من جهة ولائية، لا أنه تغيير للحكم الإلهي الشرعي.

بعـــض الفقهـــاء يذكر أن الأئمة أيضاً قبل الإمام الجواد عليه السلام كانـــوا قد أباحوا الخمس لشيعتهم ضمن ظروف معينة كان يعيشها شيعة أهل البيت ومن هنا فإنه يوجد نصوص تسمى نصوص التحليل أي تحليل الخمس، لكنها ليست حكماً إلهياً دائماً..

يـــتلخص ممـــا سبق أن من المهم لمن ينظر في روايات المعصومين علـــيهم الـــسلام أن يميز بين مقامات المعصوم المختلفة وأن هذه الرواية تنتمي إلى أي مقام للمعصوم، للنبي، للإمام، مقام التبليغ للأحكام الإلهية الكلـــية والدائمة ومن "حلال محمد حلال إلى يوم القيامة".. أو أنها من مقام القضاء ولذلك يعبرون عنها بأنها قضية في واقعة.. ولعل مثل رواية (لـــو كنت آمر أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) هـــي مـــن هذا النوع وأنها جاءت لحل مشكلة.. مثلما لو كنت قاضياً وجـــاءك رجل وزوجته فرأيت مثلاً أن هذه الزوجة قد تجاوزت الحد، فتبدأ تبين لها حقوق الزوج وأهميته وأنه كذا وكذا... ليس معنى هذا أن الزوجة ليس لها حقوق ولكن هنا في هذا المكان ما دام حدث الاعتداء من طرف الزوجة فلا بد أن تأتي وتعظم حقوق الزوج.

وإذا انعكـــست الآية وجاءك رجل قد اعتاد ضرب زوجته، فلا شك أنك ستقول له أن الذي يضرب زوجته هو في نار جهنم و(من مدّ يده إلى زوجته ليضربها فكأنما مدّ يده إلى النار) هنا لا تتكلم عن حقوق الـــزوج لأنـــه ليس من الصالح في علاج تلك المشكلة.. المهم أن تمنع الاعتداء من طرف الزوج فلا بد هنا أن تتكلم عن حقوق الزوجة.

وهكذا الحال في مقام الإدارة الاجتماعية والولاية على المجتمع، والخلـــط بين هذه المقامات يصنع أزمة في فهم النصوص الواردة عن النبي وعن المعصومين عليهم السلام.

عرض الروايات على القرآن والقيم العامة

روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلا فالذي جاء كم به أولى به)[1].

تتـــناول هذه المقالة لزوم عرض النصوص الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن المعصومين على كتاب الله، باعتبار أن ذلك أحد نقاط منهج التعامل مع النصوص الحديثية، ونتحدث فيه عن جانبين:

الجانب الأول: لزوم العرض على الكتاب والسنَّة القطعية.

والجانب الثاني: لزوم العرض على القيم العامة في الدين.

بالنـــسبة إلى الأمر الأول: يعتبر الحديث النبوي وعن المعصومين بمـــثابة الشارح والمفصل والمبين لآيات الكتاب ولا يمكن للشارح أو المـــبين أو المفـــصل أن يكون مناقضاً أو مضاداً لما جاء في الكتاب، الفـــرع ينبغي أن يكون منسجماً مع الأصل والشرح ينبغي أن يكون مـــتلائماً مع المتن وإلا لم يعد ذلك شرحاً ولا تفصيلاً، والقاعدة في هـــذا أن كل النصوص تقاس بالكتاب وآياته فإن كان عليها شاهد

(1) رواه الشيخ الكليني في الكافي 69/1 عن محمد بن يحيى، عن عبد الله بن محمد، عـــن علـــي بن الحكم، عن أبان بن عثمان عن عبد الله بن أبي يعفور، قال: ســـألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به؟ قال:

وكانت تنسجم مع أحكام القرآن وآياته وإلا فإن مثل هذه السنَّة لو خالفت آيات الكتاب وأحكامه الكتاب، فهي زخرف، ولم يقله المعصومون.

أيهما يحتاج للآخر:

وينبغي الإشارة إلى أن هناك رأيين في قضية عرض السنَّة على الكتاب وحاجة أي منهما للآخر..

التوجه الأول هو ما ذكرناه والذي يذهب إليه شيعة أهل البيت من فقهائهم ومحدثيهم وأن كل حديث ينبغي أن يعرض على الكتاب فإن خالفه ضرب بذلك الحديث عرض الحائط. ويعتمدون في ذلك على أحاديث كثيرة تبين حاجة الحديث إلى القرآن في لزوم عرضه عليه.. منها:

ما عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه".

عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنى فقال: "أيها الناس! ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله"[1].

وعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام - في حديث - قال: إذا جاءكم عنا حديث فوجدتم عليه شاهداً، أو شاهدين من كتاب الله فخذوا به، وإلا فقفوا عنده، ثم ردوه إلينا، حتى يستبين لكم.

(1) ذكره وما بعده الحر العاملي في وسائل الشيعة (آل البيت) 111/27.

وفي بعض الروايات لزوم العرض على سنَّة النبي ﷺ، بالإضافة إلى الكتاب.

وعن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنَّة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف[1].

وعن سدير قال: قال أبو جعفر وأبو عبد الله (عليهما السلام): لا تصدق علينا إلا ما وافق كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ.

وعن ابن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ وإلا فالذي جاءكم به أولى به[2].

ومعنى المخالفة هنا أنه يكون بنحو لا يمكن أن ينسجم معه، فيكون مع آيات الكتاب على حد التباين الصريح، والاختلاف الواضح، لا مجال فيه للتفسير أو للتأويل.

والقسم الأكثر من علماء الجمهور أيضاً ذهبوا إلى أن السنَّة النبوية تعرض على الكتاب وتُقيَّم في أخذها أو ردها بعدم مخالفتها لآياته.

غير أن هناك رأياً آخر ذهب إليه بعض العلماء كما ذكر ذلك في كتاب مقالات الإسلاميين وهو أن السنَّة لا تحتاج إلى الكتاب وإنما الكتاب هو الذي يحتاج إلى السنَّة، لأن السنَّة تنسخ الكتاب دون العكس.

---

(1) الزخرف: الشيء المموه غير الحقيقي.

(2) جامع أحاديث الشيعة – السيد البروجردي، ج 1، ص 257.

وهـــذا الكـــلام بظاهره غير مقبول، نعم لو كان المراد هو أن الكـــتاب لما كان محتاجاً إلى الشرح والتفصيل، والبيان والتقييد، فهو بهذا الاعتبار محتاج إلى السنَّة، فلا بأس به. لكن الكلام هو في مرحلة قـــبل هـــذه المرحلة وهي ما إذا كان مضمون الحديث والسنَّة غير منسجم، ولا متوافق مع الكتاب، فكيف يمكن قبوله والنظر فيه؟

فقـــد ذكـــر ابن أبي يعلى في كتابه طبقات الحنابلة من ضمن الاعتقادات: وأن القرآن أحوج إلى السنَّة من السنَّة إلى القرآن[1].

وقـــد فسر أحمد بن حنبل ذلك عندما سئل عن الحديث الذي روى إن الـــسنَّة قاضية على الكتاب فقال أحمد: أجسر على هذا أن أقـــوله ولكن السنَّة تفسر الكتاب وتبينه[2]. وهكذا ما نقله بن قتيبة الديـــنوري في تأويل مختلف الحديث عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: السنَّة قاضية على الكتاب وليس الكتاب بقاض على السنَّة. أراد أنها مبينة للكتاب منبئة عما أراد الله تعالى فيه[3].

إن المسلمين يعتقدون بأن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو الذي نـــــزل على رسول الله ﷺ من ربه لم تزد فيه آية و لم ينقص حرفاً، بـــل تعهـــد الله تعالى بحفظه فقال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نــزَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[4]، وهو قطعي السند قد وصل إلينا بأفضل ما يمكن من تواتر حيث حفظته الأمة جيلاً بعد جيل، بأفضل مما تحفظ به فضتها وذهـــبها. ومن يذهب إلى غير هذا من المسلمين – من أي فرقة كان ومهمـــا كانت منـــزلته العلمية – فهو مردود عليه، ومرفوض منه.

---

(1) ص 182.

(2) ص 99.

(3) ص 59.

(4) الحجر: 9.

بينما السنَّة النبوية تعرضت لكثير من التحريف والكذب قد أخبر عنه رسول الله ﷺ بل يظهر أن الكذب على النبي كان في عهده ولما يرحل عن هذه الدنيا كما يستفاد من كلام أمير المؤمنين علي: ولقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[1].

وهكذا الحال بالنسبة لأئمة أهل البيت عليهم السلام فقد ابتلوا بعدد من المنحرفين وضعوا على لسانهم روايات مكذوبة. وقد أخبروا عن ذلك أيضاً: فعن الصادق عليه السلام: إنا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس[2].

ولا يكفي النظر السندي في هذه الروايات، فإن من طريقة هؤلاء الكاذبين التدليس، بحيث يخفى في بعض الأحيان افتعالهم ووضعهم للحديث. وهنا لا بد من اللجوء إلى العرض على الكتاب لرؤية ما إذا كان الحديث متوافقاً معه أو لا.. بل لا بد من اللجوء إلى الكتاب حتى في حالة كون الرواية صحيحة السند بحسب موازين علم الرجال، فلا يكفي الصحة بهذا المعنى للأخذ بها، فلو كانت صحيحة بهذا المعنى ولكنها غير منسجمة مع آيات الكتاب وأحكامه فلا يمكن العمل بها، ولعل في الروايات السابقة التي نقلناها عن المعصومين إشارة كافية لهذا الجانب.

ففي رواية ابن أبي يعفور سوى فيها بين من يوثق به ومن لا يوثق به في أن ما جاءا به إذا كان عليه شاهد من كتاب الله فيؤخذ وإلا فلا. وهكذا إطلاق بعض الروايات الأخرى.

---

(1) نهج البلاغة – خطب الإمام علي (ع)، ج 2، ص 188 – 189.

(2) مستدرك الوسائل للمحدث النوري 90/9.

أصول السنَّة في القرآن:

والمقصود أن الأصول العامة موجودة في القرآن، وإلا فليس فيه التفصيل الموجود في الروايات.

نـــورد بعـــض الأمثلة على أن أئمة أهل البيت عليهم السلام حاولوا أن يعلموا الناس أن أصول السنَّة ينبغي أن تكون موجودة في القـــرآن، ليـــست تفاصـــيل كل حديث موجودة في القرآن ولكن الأصول العامة موجودة.

فقـــد روي[1] عن الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله، ثم قال في بعض حديثه، إن رســـول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهـــى عـــن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال! فقيل له: يا ابن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟ قال: إن الله عـــز وجـــل يقول: **﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾**[2] وقال: **﴿وَلاَ تُؤْتُوا الـــسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا...﴾**[3] وقال: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ...﴾**[4].

أحاديث رؤية الله:

إنـــنا نـــرى في بعـــض الأحيان أحاديث قد تكون منقولة في

---

(1) الكافي – الشيخ الكليني، ج 1، ص 60.

(2) النساء: 114.

(3) النساء: 5.

(4) المائدة: 101.

الصحاح ولكن لا تجد تلاؤماً وانسجاماً بينها وبين آيات القرآن، من الأمثلة على ذلك ما يرويه الجمهور في بعض كتبهم أن رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة المعراج وبعضهم يضيف بعين رأسه[1].

وفي روايات أخرى أن هذا الأمر لا يقتصر على رسول الله وإنما أنــتم أيضاً يوم القيامة، ترون ربكم لا تضامون في رؤيته كما ترون الهلال فعن قيس عن جرير قال كنا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة يعني البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته[2].

بــل بعــضهم ليضيف بأن الله قد وضع يده على كتف النبي وينقلون عن النبي أنه قال!! أحسست ببرد أنامله بين ثديي؟! ففي مــسند أحمــد: إن الــنبي ﷺ قال: "أتاني ربي عز وجل الليلة في أحــسن صورة أحسبه يعني في النوم فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت لا، قال: النبي ﷺ، فوضع يده بين كتفــي حتى وجدت بردها بين ثديي أو قال نحري فعلمت ما في الــسماوات ومــا في الأرض"[3] وأصبحت هذه الفكرة من جملة

---

(1) الــسيرة الحلبــية – الحلبي، ج 2، ص 141: قال الإمام النووي والراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله (صلى) رأى ربه بعين رأسه.. وأما رؤيته عز وجل يــوم القــيامة في الموقف فعامة لكل أحد من الخلق الإنس والجن من الرجال والنساء المؤمن والكافر والملائكة جبريل وغيره.

ونقل السيد العاملي في كتابه الصحيح من سيرة النبي الأعظم، رأيهم ورواياتهم في أن الــنبي (صلى) قد رأى الله حين المعراج بعين رأسه، ورووا ذلك عن ابن عباس. بل لقد حكى النقاش عن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عــباس: بعينه رآه، رآه، حتى انقطع نفسه، يعني نفس أحمد.. ونقل ذلك عن تاريخ الخميس..

(2) صحيح البخاري – البخاري، ج 1، ص 138 – 139.

(3) مسند أحمد – الإمام أحمد بن حنبل، ج 1، ص 368.

عقائد قسم من المسلمين[1].

لا شك هنا أن الحديث غير مقبول سواء كان رواته ثقات أو لم يكونوا، لأنه يعارض آيات القرآن الكريم، كيف يقول النبي أنه رأى ربه رأي عين وقد قال ربنا في كتابه (لا تدركه الأبصار)؟ كيف ترونه أنتم يوم القيامة، وقد قال الله لموسى: لن تراني كما يخبرنا القرآن الكريم، وهو نفي تأبيدي ودائم! كيف ينال مؤمن رؤية الله رؤية بصرية ويحرم منها نبي من أولي العزم؟

وهنا كلام للإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام يقول إنك لن تجد إساءة للنبي أكثر من نسبة ذلك له، لأنه سينتهي إلى أحد محذورين، إما أن يكذب النبي في تبليغه عن الله أنه لا تدركه الأبصار، وإما أن يكذب النبي في قوله إنه رآه، وكلا الأمرين إساءة واضحة للنبي.

فعن صفوان بن يحيى، قال: سألني أبو قرة المحدث أن أدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي، فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتى بلغ سؤاله التوحيد، فقال أبو قرة: إنا روينا أن الله عز وجل قسم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم الرؤية.

فقال أبو الحسن عليه السلام: فمن المبلّغ عن عز وجل إلى الثقلين الجن

(1) وقيل فيها الأشعار بل حتى بعض الأشعار التي تقرأ - غفلة في بعض مجالسنا - كما هو الحال في شعر عبد الباقي أفندي العمري وهو من محبي علي وأهل بيته وله شعر فخم فيهم، ولكنه بالنتيجة متأثر ببعض هذه العقائد، فيقول في بعض قصائده في مدح أمير المؤمنين: وأنت أنت الذي حطت به قدم في موضع يده الرحمن قد وضعا!! يشبه صعود الإمام علي على كتف النبي لإلقاء الأصنام من الكعبة، يقول: أنت حطت بك قدمك على مكان قد وضع الله فيه يده وهو كتف النبي!! وهو كما ترى معنى غير صحيح.

والإنـــس ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ...﴾[1] ﴿... وَلاَ يُحِــيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[2] و﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾[3] أليس محمداً ﷺ قال: بلى؟ قال: فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جــاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْــصَارُ وَهُــوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ...﴾ ﴿... وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ و﴿... لَــيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ ثم يقول: أنا رأيته بعيني، وأحطت به علمــاً وهو على صورة البشر، أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر!

قال أبو قرة: فإنه يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَــزْلَةً أُخْرَى﴾[4].

فقال أبو الحسن عليه السلام: إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى، حيث قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[5] يقول: ما كذب فؤاد محمد ﷺ مــا رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، فآيات الله عز وجل غير الله: وقد قال: ﴿... وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة.

فقــال أبــو قــرة فتكذب بالروايات فقال أبو الحسن عليه السلام: إذا كانــت الــروايات مخالفة للقرآن كذبت بها وما أجمع المسلمون علــيه أنــه لا يحــاط بــه علم ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء[6].

---

(1) الأنعام: 103.

(2) طه: 110.

(3) الشورى: 11.

(4) النجم: 13.

(5) النجم:11.

(6) التوحيد - الشيخ الصدوق، ص 110 - 112.

هل يورث الأنبياء؟

مثال آخر ما استشهدت به الصديقة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها في قضية فدك عندما قيل لها بأن هناك حديثاً وهو: "إنا معاشـــر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة" أو في نقل آخر فهو لولي الأمر بعدنا.

لم تفعـــل فاطمة الزهراء عليها السلام شيئاً سوى أنها عرضت هـــذا الحـــديث علـــى القرآن، قالت: أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونـــبذتموه وراء ظهـــوركم، إذ يقول: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ...**﴾ وفيما اقتص من خبر يحيى وزكريا إذ يقول: ﴿... **فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾[1] وقال عز وجل: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ...**﴾[2] وقـــال تعـــالى: ﴿... **إِنْ تَـــرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْـــرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾[3]. وزعمتم أن لا حظ لي ولا إرث من أبي. أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم تقولون: إن أهل ملتين لا يـــتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم بخصوص القرآن وعمومه أعلم ممن جاء به[4].

أنت ترى أن عرض الحديث على الكتاب يسقطه عن الاعتبار. فهو يخالف عمومات القرآن في إرث الأولاد من آبائهم، وخصوص آيات أخر في إرث أولاد الأنبياء من آبائهم. فإذا تمت مرحلة المقتضي ففي مرحلة المانع من اختلاف الدين أو غير ذلك لا وجود لمانع!

---

(1) مريم: 5 – 6.

(2) النساء: 11.

(3) البقرة: 180.

(4) الاحتجاج للطبرسي 139/1.

العرض على القيم العامة في الدين:

جاء الدين الإسلامي بمنظومة تشريعية ومعها منظومة قيمية أخلاقية، وكان الكثير من التشريعات يستقي من تلك القيم.. فقيمة العدالة والتي تبدأ من العدل الإلهي هي مصدر للكثير من الأحكام والتشريعات. وقيمة ارتباط الجزاء بالعمل، أيضاً هي من تلك القيم. وحرمة المسلم في ماله ودمه وعرضه أيضاً تكون منشأ للكثير من الأحكام التفصيلية.. التوحيد إحدى القيم، حرية الإنسان وأنه ليس مجبراً على أعماله جبراً يسلبه الاختيار إحدى القيم، مسؤولية الإنسان تبعاً لذلك، اشتراك الناس في التكليف إلا ما خرج بالدليل، مساواة الناس من حيث الحقوق والواجبات إلا ما اختص به صنف دون صنف.. وقد أكد القرآن الكريم هذه القيم في آيات مختلفة ومتعددة وتحدث عنها المعصومون عليهم السلام، بل قامت تشريعات الدين وتفصيلاته لتدعيمها، فإذا وجدنا رواية تخالف هذه القيم كلاً أو بعضاً مخالفة صريحة و لم يمكن الجمع بينها وبين تلك القيم الثابتة والأحكام الراسخة، ينبغي أن يتوقف أمامه موقف المتأمل والمستفهم أو الراد في الأخير..

في المقابل توجد أحاديث تروى عن النبي ﷺ تارة وعن المعصومين أخرى، وربما يكون سندها معتبراً، لكن مع شيء من التأمل تجد أن هذه الأحاديث لا تتفق مع واحدة أو أكثر من القيم في المنظومة الأخلاقية للإسلام..

لن تبلغوا مدّ أحدهم!

وهنا تأتي أهمية العرض على هذه القيم، فإنه يروى عن النبي ﷺ: "لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ

مُدّ أحدهم ولا نصيفه"[1].

عـــندما تعرض هذا الحديث على القيم العامة ومنها عدم جواز سب المسلم لأن ذلك يخالف احترامه، تجد الأمر طبيعياً، لكن التعليل الذي ينتهي به الحديث يمكن التأمل فيه، فإن من القيم الدينية العامة توافـــق العمل مع الجزاء وتناسبه، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**.. وأن الشخص يثاب بحسب عمله لا بحسب صفته، كـــيف أنها هنا لما وصلت إلى أصحاب النبي تعطلت؟ لا شك أنه لا يـــصح سبهم، ولكن أن تكسبهم صحبة النبي ارتفاعاً على القانون الإلهي والقيم العامة.. هذا غير صحيح. خصوصاً أن الحديث لم يقل بعض أصحابي، وإنما قال أصحابي التي تدل على الاستيعاب والشمول والعمـــوم، أبو سفيان مثلاً من أصحاب رسول الله، هل ينطبق عليه هـــذا الحديث أو لا ينطبق؟ هل أن أحد المسلمين من التابعين أو من بعدهم في زماننا لو عمل ما عمل حتى لو أنفق مثل جبل أُحد ذهباً لم يبلغ معادل مُدّ أبي سفيان (حوالى 750 غرام) ولا نصيف المد؟

إن قانون الجزاء يقول: لو أن شخصين احتويا على نفس النية، وتصدق أحدهما أكثر مما تصدق الآخر – ولو كان من أصحاب النبي – فـــإن الأول يحوز على ثواب أكثر! وكون الثاني كان من أصحاب النبي لا يعطي لصدقته قيمة استثنائية!

ولهـــذا لا يمكـــن قبول ما قاله ابن حزم في المحلى مثلاً: من أن نصف مدّ شعير يتصدق به أحدهم يفضل جميع أعمال أحدنا لو عمر مائة سنة، لأن نصف مدّ أحدهم أفضل من جبل أُحد ذهباً ننفقه نحن

---

(1) مسند أحمد 11/3.

في وجـــوه الـــبر، وما نعلم أحداً ينفق في البر زنة حجر ضخم من حجارة أحد فكيف الجبل كله[1].

وهكـــذا ما ينقل في بعض كتبنا من روايات تشير إلى نحو من الارتفـــاع والغلـــو في حق بعض المعصومين، فإنها مع عرضها على الكتاب وعلى الأصول الدينية الثابتة لا تلبث أن تتساقط. مثلما يقال أن عليا عليه السلام قال: أنا الأول أنا الآخر أنا الظاهر أنا الباطن أنا الذي سيرت سفينة نوح أنا كذا أنا كذا...، بعض هذه لها توجيه وتأويل لو صحت، مثل أنا أول من أسلم وآخر الناس عهداً برسول الله، إذا كان يمكن توجيهها بهذا النحو فهو وإلا فإنها ترفض، وهي زخرف، وهي مما لم يقله الإمام عليه السلام.

غيبة المسلمين المخالفين في المذهب:

هناك بعض الروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام تتحدث عن جواز غيبة المسلم المخالف في المذهب وجاء بعض الفقهاء ليحلوا الـــتعارض بينها وبين القرآن الكريم ﴿... **وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**...﴾[2] وما ينبغي من المحافظة على حقوق المسلمين. وسلكوا في ذلك مسالك متعددة، فعن المحقق الأردبيلي[3] رحمه الله (والظاهر أن عموم أدلة تحريم الغيبة

---

(1) المحلى – ابن حزم، ج 4، ص 42.

(2) الحجرات: 12.

(3) ذكـــره المحـــدث الشيخ عباس القمي في كتابه الكنى والألقاب فقال: "المولى الأجـــل العالم الرباني والمحقق الفقيه الصمداني مولانا أحمد بن محمد الأردبيلي النجفـــي، أمـــره في الـــثقة والجلالة والفضل والنبالة والزهد والديانة والورع والأمانـــة أشهر من أن يحيط به قلم أو يحويه رقم، كان متكلماً فقيهاً، عظيم الشأن جليل القدر رفيع المنـــزل أورع أهل زمانه وأعبدهم وأتقاهم، وكفى في

من الكتاب والسنَّة يشمل المؤمنين وغيرهم، فإن قوله تعالى: ﴿... **وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**...﴾[1] إما للمكلفين كلهم، أو المسلمين فقط، لجواز غيبة الكافر ولقوله تعالى بعده: ﴿... **لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**...﴾ وكذا الأخبار فإن أكثرها بلفظ الناس أو المسلم. مثل ما روي في الفقيه: (من اغتاب امرءً مسلماً بطل صومه ونقض وضوئه وجاء يوم القيامة يفوح من فيه رائحة أنتن من الجيفة يتأذى به أهل الموقف، وإن مات قبل أن يتوب مات مستحلاً لما حرم الله تعالى، ألا من سمع فاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها، ومن اصطنع إلى أخيه معروفاً فامتن به أحبط الله عمله وأثبت وزره ولم يشكر له سعيه). وقال (ره) في رسالة الغيبة: (قال النبي ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، والغيبة تناول العرض"، وقد جمع بينها وبين الدم والمال وقال ﷺ: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضاً، وكونوا عباد الله إخواناً". وعن أنس قال: قال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوهَا، فقال: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف

ذلك ما قال العلامة المجلسي (ره): والمحقق الأردبيلي في الورع والتقوى والزهد والفضل بلغ الغاية القصوى، ولم أسمع بمثله في المتقدمين والمتأخرين جمع الله بينه وبين الأئمة الطاهرين.. انتهى.

توفي سنة 993هـ، وكان من أعيان تلامذته صاحب مدارك الأحكام السيد محمد العاملي، وصاحب المعالم والشيخ عبد الله التستري، وكان يتميز في الجانب العلمي بالجرأة والتجديد، وتحقيق الكثير من المباني بعد التشكيك في ما هو مشهور، كما يلاحظ الناظر إلى كتابه مجمع الفائدة والبرهان. بنفس المقدار الذي كان يعرف به بالقداسة والاحتياط والزهد في الجانب العملي والأخلاقي.

(1) الحجرات: 12.

بيته" وغير ذلك. وبالجملة: عموم أدلة الغيبة وخصوص ذكر المسلم يـــدل على التحريم مطلقاً، وأن عرض المسلم كدمه وماله، فكما لا يجـــوز أخـــذ مـــال المخالف وقتله لا يجوز تناول عرضه الذي هو الغيبة)[1].

وإلى رأي المحقـــق الأردبيلي المتوفى سنة 993هـــ، المخالف لما عليه جملة من العلماء الذين التزموا بمفاد تلك الروايات، ذهب بعض الفقهاء المعاصرين كالشيخ حسين علي المنتظري الذي قال: إن حرمة الـــسب والغيـــبة، والتي تمثل انتهاكاً للحقوق المعنوية خاصة بالمؤمن فقـــط، فيقول: إن ظلم الناس غير جائز بحكم العقل وبحكم الكتاب والـــسنَّة أيـــضاً، نحن نعتقد أن القرآن إذ يقول: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾** فهو يقصد أن بني آدم مكرمون لأنهم بنو آدم. فحينما يقال حقوق الإنسان، معنى ذلك أن للإنسان شرفه وكرامته بما هو إنسان حـــتى لو كان كافراً، لأن الإنسان محترم بذاته عند الله وهذا صريح معـــنى الآية، ويقول علي في عهده لمالك الأشتر: "الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق" وبالتالي فإن للإنسان حرمته بما هو إنسان. إن السب حرام وعلى المؤمن أشد حرمة، ربما اعتبروا روايات تحريم السب خاصة بالمؤمنين لأن ذلك هو القدر المتيقن. إن تشديد الروايات على المؤمن ربما كان لإثارة المشاعر، حيث يقال: إن هذا الشخص مؤمن ومقتضى ذلك أن بعض التهم لا تنطبق عليه.

وفي حـــرمة الـــسب يمكن كذلك اعتماد الآية: **﴿... وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَـــابِ...﴾**[2]، وليس فيها قيد المؤمن والمسلم. يقول الله إنه يكره اختلاق الألقاب السيئة. ويقول أيضاً: **﴿... لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ...﴾**

---

(1) مجمع الفائدة – المحقق الأردبيلي، ج 78/8.

(2) الحجرات: 11.

ولا يقـــيد ذلـــك باعتناقهم الإسلام، لأن الله أراد أساساً أن تكون العلاقات الاجتماعية سليمة ولا يخاطب الناس بعضهم بعضاً بالسوء، إنه حكم يشمل غير المسلمين أيضاً. السب مذموم عند الله في نفسه، سواء كان ضد مؤمن أو ضد غير المؤمن[1].

وكـــذلك كان رأي الشيخ الصانعي الذي قال: قد ذكرت في بحـــث الغيبة أنّها لا تجوز بتاتاً على خلاف بعض الفقهاء الذين قالوا بجـــواز غيـــبة غير الشيعي وأنه لا يوجد لنا دليل على حرمتها. وقد ذكـــرت في المكاســـب المحرّمة عدم جواز غيبة أي أحد، الغيبة بمعنى الانـــتقاد الناشـــئ مـــن الحسد محرمة، أما إذا أظهرت مظلوميتي أو انتقدت من يرتكب الأخطاء في المجتمع فهذا ليس بغيبة وليس محرّماً، والغيـــبة المحرّمة هي الغيبة الناشئة عن الحسد، وهناك موارد لاستثناء الغيـــبة أشـــار إلـــيها الـــشهيد الثاني في رسالته وأنا لا أعتبرها من استثناءات الغيبة، فما ذكره من موارد تختلف عن الغيبة.

إنّ المـــرحوم المحقـــق الداماد كان يقول: يعتقد أبي أن روايات الغيبة كانت تخصُّ بني أميّة وجاءت بعد واقعة كربلاء؛ لأن جنايات بني أميّة كانت كثيرة، وهي لا تعد غيبة بل تظلُّماً[2].

علم الأئمة بالغيب

مـــا يظهـــر مـــنه في بعض الروايات أن الأئمة يعلمون الغيب بالاستقلال، ظاهرها هكذا لكن يكذبها أن الله سبحانه وتعالى هو لا ســـواه عـــنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو **﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي**

---

(1) نقل ذلك في موقعه الإلكتروني عنه الشيخ حسن الصفار.

(2) عن موقعه على شبكة الإنترنت.

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ...﴾[1] نعم تعليم من الله لبعض أوليائه لا مانع منه فإن الله **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَـــنِ ارْتَـــضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَـــدًا﴾**[2]. أو كما أجاب أمير المؤمنين عليه السلام لمن قال له (أعطيت علم الغيب): ليس هو بعلم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم.

المرأة شر؟

كذلك ما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: المرأة شر كلها وشر منها أنه لا بد منها!!

عندما تتأمل في هذا القول لا بد أن تتوقف أولاً لتتساءل هل أن الله سبحانه وتعالى قد خلق شراً مطلقاً؟ ليس فيه جهة خير أصلاً؟ بل وحـــتى جهـــة الخير وهي الحاجة إليها للتناسل هي أيضاً تكون أكثر (شـــرية) وسوءاً من المرأة الشر نفسها؟ ما هو الذنب الذي ارتكبته قبل أن تخلق! لكي تخلق شراً مطلقاً؟

عـــندما تعـــرض هذه الرواية أولاً على القرآن الكريم تجد فيه المساواة في التكليف والمنـــزلة والأجر، فكيف تكون في هذه الرواية شراً وفي القرآن غير ذلك؟

مـــاذا يقول القرآن: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِـــلٍ مِـــنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾**[3] ويقول:

---

(1) النمل: 65.

(2) الجن: 26 - 27.

(3) آل عمران: 195.

﴿وَمَـــنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1] **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُـــوا يَعْمَلُـــونَ﴾**[2].. تعـــال واعرضها على السنَّة الثابتة والقيم الأصـــيلة.. (المرأة ريحانة وليست بقهرمانة) اعرضها على (نعم الولد البنات) و(البنات حسنات والحسنات تثاب عليهن).

فإن أمكن توجيه الرواية المذكورة بنحو يتوافق مع هذه الأصول القرآنية والأخلاقية، وإلا فلا يمكن قبولها. فإن القرآن قد أعلى منازل النـــساء حـــتى ضـــرب منهن الأمثال للنساء والرجال على السواء **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ...﴾**[3].

كيف تكون شراً كلها! مع وجود هذا العدد الهائل من النساء الفـــضليات من آل بيت رسول الله من الصحابيات ومن العاملات والمؤمنات والمتفقهات في الدين على مرّ التاريخ؟ واستثناء هذا العدد ينتهي إلى استثناء الأكثر وهو قبيح ومستهجن!

شاوروهن ثم خالفوهن:

هـــناك رواية أخرى تروى عن الإمام أيضاً وهي (شاوروهن ثم خالفـــوهن) ونحن نتساءل هنا هل هذا مطابق لما أمر به من العشرة الحـــسنة، التي أمر بها القرآن وهي أساس الحياة الزوجية المستقرة فهو

---

(1) النساء: 124.

(2) النحل: 97.

(3) التحريم: 11.

يقـــول لنا من جهة: ﴿**... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...**﴾[1] لكن من جهـــة أخرى تقول الرواية أنك في الوقت الذي تريد مشاورتها تعمد مخالفتها هل هذه عشرة بمعروف!!

القرآن الكريم ينقل لنا آراء نساء لم يكن مؤمنات، كانت خيراً من آراء الرجال في مجتمعهن وأنتجت إيمان مجتمع كامل، وهي قضية سبأ وبلقيس.

ويـــوجه القرآن الكريم إلى أن الزوجين ينبغي أن يتشاورا في أمور البيت والأطفال، ومن الطبيعي أنه بقصد الوصول إلى تفاهم مـــشترك، ونتيجة طيبة ﴿... **فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَـــشَاوُرٍ فَـــلاَ جُـــنَاحَ عَلَيْهِمَا**...﴾[2] ووجدنا أن النبي ﷺ قد استشار بعض زوجاته وعمل على طبق مشورتهن، كما يذكر ذلك في قـــضية صـــلح الحديبـــية، واستشارته لزوجته أم سلمة وعمله بذلك[3].

(1) النساء: 19.

(2) البقرة: 233.

(3) لمراجعة هذا العنوان وسابقه بالتفصيل يمكن مراجعة مقدمة كتاب (في رحاب الإمام علي) محاولة لفهم أحاديث في شأن المرأة.

مركز آفاق للدراسات والأبحاث

مؤسسة ثقافية تعنى بشؤون التجديد الثقافي وقيم الحوار والتسامح وقضايا الحرية والإصلاح، وتعمل على تنمية الاهتمام بالجوانب الثقافية والمعرفية.

وتتوسل في سبيل تحقيق ذلك بالخطوات التالية:

1. تزويد الساحة بكتابات ومؤلفات جادة حول قيم التعددية والإصلاح والعيش المشترك ومؤسسات المجتمع المدني والقبول بالآخر.
2. التواصل المعرفي والثقافي مع الثقافات الإنسانية والمكاسب الحضارية.
3. تفكيك الأصول الفكرية والأسس الثقافية لظواهر الاستبداد والاستفراد بالرأي والتعصب والغلو، وإرساء معالم الاعتدال والشورى والتداول والحريات العامة.
4. المساهمة عبر وسائل التوعية والتثقيف في مشروعات التنمية الثقافية في المجتمع.

لمراسلة المركز: aafaq2006@maktoob.com